نام کتاب: المهدوية عند أهل البيت(عليهم السلام)

پدیدآور: بهبهانی، عبد الکریم

مراجعه: یوسفی، محمد هادی

نویسنده: لجنة البحوث و اجوبة الشبهات

مراجعه: عبدالحمید، صائب

اشراف: اسلامی، ابو الفضل

موضوع: شناخت نامه امام مهدی

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: مجمع جهانی اهل بیت علیهم السلام

مکان چاپ: قم(ایران)

سال چاپ: ۱۴۲۲ ه. ق

نوبت چاپ: ۱

ص:۵

کلمة المجمع

إن من طبيعة الناس أن يختلفوا؛ و لكن اللّه يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة داخل إطار التصور الإيمانى الصحيح. و من ثم لم يكن بدّ أن يكون هناک ميزان ثابت يفىء إليه المختلفون. و قد أنزل اللّه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه[1].

و بغير هذا الحق الواحد الذى لا يتعدد؛ لا يستقيم أمر هذه الحياة.

و هذا الذى يقرره القرآن يقوم على قاعدة التوحيد المطلق. ثم يقع الانحراف، و تتراكم الخرافات و الأساطير، حتى يبعد الناس نهائيا عن ذلک الأصل الكبير.

و من هنا يتبيّن أنّ الناس ليسوا هم الحكم فى الحق و الباطل ما داموا عرضة للهوى و البغى و الضلال.

و لقد جاء الكتاب .. و مع ذلک كان الهوى يغلب الناس من هنا و هناک؛ و كانت المطامع و الرغائب و المخاوف و الضلالات تبعد الناس عن قبول حكم الكتاب، و الرجوع الى الحق الذى يردّهم إليه.

فالبغى- حسب النصّ القرآنى[2]- هو الذى قاد الناس الى المضىّ فى الاختلاف و فى اللجاج و العناد.

و الجهل عامل آخر للاختلاف و الفرقة، غير أن الجاهل ينبغى أن يسأل

العلماء ما جهل، كما قال تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ*[3].

و من هنا كان تجاوز الجاهل لهذا الأصل الذى يرتضيه العقل و يستسيغه العقلاء بغيا و تعدّيا لأوضح القواعد و الطرق التى من شأنها أن تسدّ طريق الفرقة و الاختلاف.

و الإسلام دين اللّه الخالد الذى تمثّلت حقائقه فى نصوص كتاب اللّه و سنّة رسوله الذى لا ينطق عن الهوى و إنّما هى وحى يوحى.

و قد علم اللّه و رسوله أن امّته ستختلف من بعده، كما اختلفت فى حياته.

من هنا جعل القرآن للامة نبراسا من بعد الرسول يحذو حذوه صلى اللّه عليه و آله و يقدّم للامة ما تقصر عن فهمه و تفسيره، و هو أهل البيت عليهم السّلام، و هم المطهّرون من كل رجس و دنس و الذين نزل القرآن على جدّهم المصطفى و تلقّوه منه فعقلوه عقل و عاية و رعاية، فآتاهم اللّه ما لم يؤت أحدا سواهم .. كما نصّ الرسول صلى اللّه عليه و آله على مرجعيتهم الشاملة فى

---

[1] (۱ و ۲) راجع الآية ۲۱۳ من سورة البقرة.

[2] (۱ و ۲) راجع الآية ۲۱۳ من سورة البقرة.

[3] (۱) الانبياء: ۷ و النحل: ۴۳.

حديث الثقلين المشهور، فحرصوا على صيانة الشريعة الإسلامية و القرآن الكريم من الفهم الخاطئ و التفسير الباطل و دأبوا على تبيان مفاهيمه الرفيعة، فكانوا مرجعا للامة و ملاذا للمسلمين، يدفعون الشبهات و يستقبلون الاسئلة و الإثارات بحلم و أناة. و يشهد تراثهم المعطاء على حسن تعاملهم مع أصحاب السؤال و الحوار، و يدلّ على طول باعهم و عمق إجابتهم التى تشهد لم بمرجعيتهم العلمية فى هذا المضمار.

إن تراث أهل البيت عليهم السّلام الذى حفظته مدرستهم و حرص على حفظه

ص:٧

من الضياع أتباعهم يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية.

و قد استطاعت هذه المدرسة أن تربّى النفوس المستعدة للاغتراف من هذا المعين و تقدّم للامة الإسلامية كبار العلماء المحتذين لخطى أهل البيت عليهم السّلام الرسالية، مستوعبين إثارات و أسئلة شتى المذاهب و الاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية و خارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة و الحلول على مدى القرون المتتالية.

و قد بادر المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السّلام- منطلقا من مسؤولياته التى أخذها على عاتقه- للدفاع عن حريم الرسالة و حقائقها التى ضبّب عليها أرباب الفرق و المذاهب و أصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفيا خطى أهل البيت عليهم السّلام و أتباع مدرستهم الرشيدة التى حرصت فى الرد على التحديات المستمرة و حاولت أن تبقى على الدوام فى خط المواجهة و بالمستوى المطلوب فى كل عصر.

إن التجارب التى تختزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السّلام فى هذا المضمار فريدة فى نوعها؛ لأنها ذات رصيد علمى يحتكم الى العقل و البرهان و يتجنّب الهوى و التعصب المذموم، و يخاطب العلماء و المفكرين من ذوى الاختصاص خطابا يستسيغه العقل و تتقبله الفطرة السليمة.

و قد جاءت محاولة المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السّلام لتقدم لطلّاب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة فى باب الحوار و السؤال و الرد على الشبهات- التى اثيرت فى عصور سابقة أو تثار اليوم و لا سيّما بدعم من بعض الدوائر الحاقدة على الإسلام و المسلمين من خلال شبكات الانترنيت و غيرها- متجنّبة الإثارات المذمومة و حريصة على

ص:٨

استثارة العقول المفكرة و النفوس الطالبة للحق لتنفتح على الحقائق التى تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع فى عصر يتم فيه تكامل العقول و تواصل النفوس و الأرواح بشكل سريع و فريد.

و لا بدّ أن نشير الى أن هذه المجموعة من البحوث قد اعدت فى لجنة خاصة يرأسها فضيلة حجة الإسلام و المسلمين الشيخ أبو الفضل الإسلامى (على) برفقة مجموعة من الأفاضل و هم السيد منذر الحكيم و الشيخ عبد الكريم البهبهانى و السيد عبد الرحيم

الموسوی و الشیخ عبد الأمیر السلطانی و الشیخ محمد الأمینی و الشیخ محمد هاشم العاملی و السید محمد رضا آل ایوب و الشیخ علی بهرامی و حسین الصالحی و عزیز العقابی.

و نتقدم بالشکر الجزیل لکل هؤلاء و لأصحاب الفضل و التحقیق:

الشیخ محمد هادی الیوسفی الغروی و الشیخ جعفر الهادی و الاستاذ صائب عبد الحمید لمراجعة کلّ منهم جملة من هذه البحوث و ابداء ملاحظاتهم القیّمة عنها.

و کلنا أمل و رجاء بأن نکون قد قدّمنا ما استطعنا من جهد أداء لبعض ما علینا تجاه رسالة ربنا العظیم الذی أرسل رسوله بالهدی و دین الحق لیظهره علی الدین کله و کفی باللّه شهیدا.

المجمع العالمی لأهل البیت علیهم السّلام قم المقدسة

ص:۹

المهدویّة عند أهل البیت علیهم السّلام

الإمامة الإثنا عشریة جوهر مفهوم المهدویّة

إن أصل الاعتقاد بفکرة ظهور المنقذ الذی یمثل جوهر الفکرة المهدویة فی الإسلام یعتبر ظاهرة إنسانیة عامة و لیس خاصا بدین معین أو مذهب معین، و هذه الحقیقة من شأنها أن تساعد علی اسقاط أربع شبهات فی المسألة المهدویة فی آن واحد.

فهی توضح أولا: بطلان الشبهة القائلة باختصاص الشیعة بالقول بالمهدویة، خاصة مع ثبوت اجماع المسلمین علیه.

و توضح ثانیا: بطلان شبهة الاسطورة القائلة بأن المهدویة فکرة اسطوریة منتزعة من الخیال، فإن الاسطورة خیال ساذج منتزع من واقع قبلی أو قومی أو فئوی محدود، و لیست هناک اسطورة تحضی بإجماع الأدیان السماویة و غیر السماویة، و تعبّر عن ضمیر إنسانی عام، و یتبناها العلماء و المفکرون و الفلاسفة.

و توضح ثالثا: بطلان الشبهة القائلة بدور الیهود فی إیجاد الفکرة المهدویة، فإذا کان مضمون الفکرة المهدویة موجودا فی کل دین حتی الأدیان غیر السماویة، فلماذا نستکثر علی الإسلام وجوده فیه؟ فإن مقتضی العقل و المنطق أن یکون الإسلام مشتملا

ص:۱۰

علی هذه الفکرة بمفهوم أوضح و أکمل، کما هو المتجسد فی مدرسة أهل البیت علیهم السّلام.

و حینئذ، فمن مؤشرات الکمال فی هذا الدین، و هذه المدرسة بالذات، احتواؤهما علی الفکرة المهدویة، أ‌لیست الأدیان تشترک فی محاور عقائدیة و تشریعیة کثیرة کالحج، و الصوم، و الصلاة ...

إلخ، فهل أن تصریح الیهودیة- و غیرها- بمثل هذه المحاور یقتضی ابتعاد الإسلام عنها؟ أم یقتضی تأکید الإسلام علیها، و طرحها بمفهوم أکمل و أرقی؟ فهذه الشبهة تعود علی أصحابها بالنقص و علی الإسلام و التشیع بالکمال.

کما توضح رابعا: بطلان الشبهة القائلة بأن الفکرة المهدویة ولیدة ظروف الضغط السیاسی التی عاشها أتباع الائمة علیهم السّلام، فإن الخوارج واجهوا ضغطا لا یقل عما واجهه أتباع الأئمة علیهم السّلام و لو کانت هناک قاعدة مطردة فما أکثر المظلومین و المضطهدین الذین لم یعرف عنهم اعتقاد بمضمون الفکرة المهدویة، و ما أکثر الأفراد و الجماعات التی آمنت بهذا المضمون بدون معاناة لظلم و اضطهاد، و لو کان هذا الاعتقاد ناشئا من الظلم و الاضطهاد فما باله یظهر فی الأجیال التالیة غیر المضطهدة؟

نعم، الشیء الذی یمکن الاعتقاد به هو أن عوامل الضغط و الاضطهاد من شأنها أن تدفع باتجاه التمسک بالفکرة المهدویة

أکثر، لا أنها تنشئ هذه الفکرة و توجدها من حیث الأساس.

إن الدین هو التعبیر الأکمل عن الحقائق الإنسانیة، و الإسلام هو التعبیر الأکمل عن الحقائق الدینیة، و مدرسة أهل البیت علیهم السّلام هی التعبیر الأکمل عن الحقائق الإسلامیة.

و حینما تصرح الأدیان بفکرة المنقذ العالمی فإنما تکشف- فضلا عن الحقیقة الغیبیة- عن ضمیر إنسانی أکید و بنحو أکمل، و حینما یصرح الإسلام بهذه الفکرة، إنما یصرح بحقیقة دینیة أکیدة و بنحو أکمل مما طرحته الأدیان السابقة، و حینما یصرح أهل البیت علیهم السّلام بهذه الفکرة فإنما یقدمون البیان الأکمل عن الحقیقة الإسلامیة فی هذا المضمار.

و حینئذ، فالفرق بین المسألة المهدویة فی مفهوم مدرسة الخلفاء و مدرسة أهل البیت علیهم السّلام هو الفرق بین مدرسة تبیّن الحد الأدنی من الحقیقة و مدرسة تتصدی لبیان الحقیقة الإسلامیة بحدها الأعلی، فتتصور الاولی أن الثانیة قد سلکت سبیل الغلو و التطرف، و لعل السرّ فی اشتهار التشیع بالمهدویة حتی کأنها من خصائصه و لیست من العقائد المجمع علیها بین المسلمین یعود الی اختصاصه بحد الکمال، و تمتع المفهوم المهدوی لدیه بخصائص فریدة بها یتحقق المعنی المطلوب من المهدویة.

و هذه الخصائص تتشعب من محور واحد هو أن المهدویة فی

مفهوم أهل البیت علیهم السّلام لیست نظرة مستقبلیة صرفة، و لیست مجرد إخبار عن مستقبل سعید للبشریة سیکون فی نهایة المطاف، کما تری ذلک مدرسة الخلفاء، و إنما هی قبل ذلک جزء لا یتجزء من عقیدة الإمامة الاثنی عشریة التی قدّر لها سماویا

أن تستوعب التاريخ من لحظة وفاة الرسول صلى اللّه عليه و آله الى اللحظة الأخيرة من حياة البشرية، أو بتعبير آخر، هى مسألة الإمام الثانى عشر الذى بدأت إمامته منذ عام (٢۶٠ ه) و تواصلت حتى الآن، و ستتواصل حتى ظهوره فى خاتمة التاريخ.

و نحن حينما نبحث فى المسألة المهدوية فى مفهوم أهل البيت عليهم السّلام لا بد و أن نركّز على هذا المحور العقائدى و ننظر إليه تارة من زاوية الدليل و البرهان بقصد الإثبات، و اخرى من زاوية الخصائص المترتبة عليه، و ثالثة من زاوية القيمة العقائدية التى ينطوى عليها، فهنا ثلاث مراحل من البحث نجعل كل مرحلة فى فصل.

ص:١٣

الفصل الأوّل الإثبات العقائدى لمفهوم المهدويّة عند أهل البيت عليهم السّلام

الدليل العقائدى على هذا المفهوم يتمثل فى مئات الروايات الواردة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله[۴] التى تدل على تعيين المهدى و كونه من أهل البيت[۵] ... و من ولد فاطمة[۶] .. و من ذرية

ص:١۴

---

[۴] (١) راجع معجم أحاديث الإمام المهدى: ج ١ أحاديث النبى صلى اللّه عليه و آله.

[۵] (٢) مسند الإمام أحمد: ١/ ٨۴ ح ۶۴۶ و ابن أبى شيبة: ٨/ ۶٧٨، كتاب ۴٠ باب ٢ ح ١٩٠، و ابن ماجة و نعيم بن حماد فى الفتن عن على عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله:« المهدى منّا أهل البيت يصلحه اللّه فى ليلة».

راجع: سنن ابن ماجة: ٢/ ١٣۶٧ ح ۴٠٨۵، و الحاوى للفتاوى، السيوطى: ٢/ ٢١٣ و ٢١۵ و فيه، أيضا: أخرج أحمد و ابن أبى شيبة و أبو داود، عن على، عن النبى صلى اللّه عليه و آله قال:« لو لم يبق من الدهر إلّا يوم لبعث اللّه رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جورا»، و راجع:

صحيح سنن المصطفى: ٢/ ٢٠٧.

و راجع: معجم أحاديث المهدى: ١/ ١۴٧ و ما بعدها، إذ ينقل أحاديث كثيرة عن الصحاح و المسانيد فى هذا المعنى. و راجع موسوعة الإمام المهدى/ ترتيب مهدى فقيه إيمانى، الجزء الأول، و فيها نقول مصوّرة عن عشرات الكتب لعلماء السنّة و محدّثيهم فى المهدى و صفاته و ما يتعلق به، و فيها نسخة مصورة عن محاضرة الشيخ العباد حول ما جاء من الأحاديث و الآثار فى المهدى عليه السّلام.

[۶] (٣) الحاوى للفتاوى، السيوطى جلال الدين: ٢/ ٢١۴، قال: و أخرج أبو داود و ابن ماجة-- و الطبرانى و الحاكم عن امّ سلمة قالت: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله يقول:« المهدى من عترتى من ولد فاطمة». و راجع صحيح سنن المصطفى لأبى داود: ٢/ ٢٠٨، و سنن ابن ماجة:

٢/ ١٣۶٨، ح ۴٠٨۶.

الحسين[۷] ... و أنه التاسع من ولد الحسين[۸] ... و أنّ الخلفاء اثنا عشر[۹].

فهذه خمس طوائف من الروايات تتظافر فيما بينها على تبيين مفهوم المهدوية و تشخيص الإمام المهدى، و الذى ينظر فيها

يلاحظ ما فيها من التدرج من العنوان الكبير الى العنوان الأصغر حتى تصل الى التحديد الشخصى.

و قد لاحظ السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضى اللّه عنه أن هذه الروايات: «بلغت درجة كبيرة من الكثرة و الانتشار على الرغم من تحفّظ الأئمة عليهم السّلام و احتياطهم فى طرح ذلک على المستوى العام، وقاية للخلف الصالح من الاغتيال أو الإجهاز السريع على حياته[۱۰].

و ليست الكثرة العددية للروايات هى الأساس الوحيد لقبولها، بل هناک- إضافة الى ذلک- مزايا و قرائن تبرهن على صحتها، فالحديث النبوى الشريف عن الأئمة أو الخلفاء أو الامراء بعده و أنهم اثنا عشر إماما أو خليفة أو أميرا- على اختلاف متن

---

[۷] (۱) حديث المهدى من ذرية الحسين عليه السّلام كما فى المصادر الآتية على ما نقل فى معجم أحاديث المهدى و هى: الأربعون حديثا لأبى نعيم الأصفهانى كما فى عقد الدرر للمقدسى الشافعى، و أخرجه الطبرانى فى الأوسط على ما فى المنار المنيف لابن القيم، و فى السيرة الحلبية: ۱/ ۱۹۳، و فى القول المختصر لابن حجر الهيثمى. راجع منتخب الأثر للشيخ لطف اللّه الصافى فى ما نقله من كتب الشيعة. و راجع دلائل ضعف الرواية التى تقول بأنّه من ولد الإمام الحسن عليه السّلام كتاب السيد العميدى دفاع عن الكافى: ۱/ ۲۹۶.

[۸] (۲) راجع الرواية التى تنص على أنّه التاسع من ولد الحسين عليه السّلام فى: ينابيع المودّة للقندوزى الحنفى: ۴۹۲، و فى مقتل الإمام الحسين للخوارزمى: ۱/ ۱۹۶، و فى فرائد السمطين للجوينى الشافعى: ۲/ ۳۱۰- ۳۱۵ الأحاديث من ۵۶۱- ۵۶۹، و راجع منتخب الأثر للعلّامة الشيخ الصافى إذ خرّجها من طرق الفريقين.

[۹] (۳) حديث« الخلفاء بعدى اثنا عشر كلهم من قريش» أو« لا يزال هذا الدين قائما ما وليه اثنا عشر كلهم من قريش».

هذا الحديث متواتر، روته الصحاح و المسانيد بطرق متعددة و إن اختلف فى متنه قليلا، نعم، اختلفوا فى تأويله و اضطربوا. راجع: صحيح البخارى: ۹/ ۱۰۱ كتاب الأحكام- باب الاستخلاف، صحيح مسلم: ۶/ ۴ كتاب الإمارة باب الاستخلاف، مسند أحمد: ۵/ ۹۰، ۹۳، ۹۷.

[۱۰] (۱) راجع الغيبة الكبرى للسيد محمد الصدر: ۲۷۲ و ما بعدها.

الحديث فی طرقه المختلفة- قد أحصی بعض المؤلفین رواياته فبلغت أكثر من مائتين و سبعين رواية[11] مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة و السنّة بما فی ذلک البخاری[12] و مسلم[13] و الترمذی[14] و أبی داود[15]

ص:۱۶

و مسند أحمد[16] و مستدرک الحاكم علی الصحيحين[17]، و يلاحظ هنا أن البخاری الذی نقل هذا الحديث كان معاصرا للإمام الجواد و الإمامين الهادی و العسكری، و فی ذلک مغزی كبيرا؛ لأنه يبرهن علی أن هذا الحديث قد سجّل عن النبی صلی اللّه عليه و آله قبل أن يتحقق مضمونه و تكتمل فكرة الأئمة الاثنی عشر فعلا، و هذا يعنی أنه لا يوجد أی مجال للشک فی أن يكون نقل الحديث متأثرا بالواقع الإمامی الاثنی عشری و انعكاسا له؛ لأن الأحاديث المزيفة التی تنسب الی النبی صلی اللّه عليه و آله هی انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنيا لا تسبق فی ظهورها و تسجيلها فی كتب الحديث ذلک الواقع الذی تشكل انعكاسا له، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادی علی أن الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخی للأئمة الاثنی عشر، و ضبط فی كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامی الاثنی عشری، أمكننا أن نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاسا لواقع، و إنما هو تعبير عن حقيقة ربّانية نطق بها من لا ينطق عن هوی[18]، فقال:

ص:۱۷

---

[11] (۲) راجع التاج الجامع للاصول: ۳/ ۴۰ قال: رواه الشيخان و الترمذی، و راجع فی تحقيق الحديث و طرقه و أسانيده كتاب الإمام المهدی عليه السّلام- علی محمد علی دخيل.

[12] (۳) صحيح البخاری/ المجلد الثالث: ۹/ ۱۰۱، كتاب الأحكام- باب الاستخلاف، طبعة دار إحياء التراث العربی- بيروت.

[13] (۴ و ۵ و ۶) راجع: التاج الجامع للاصول: ۳/ ۴۰، قال تعقيبا علی الحديث: رواه الشيخان-- و الترمذی، و فی الهامش قال: رواه أبو داود فی كتاب المهدی بلفظ:« لا يزال هذا الدين قائما حتی يكون عليكم اثنا عشر خليفة ...»، و راجع سنن أبی داود: ۲/ ۲۰۷.

[14] (۴ و ۵ و ۶) راجع: التاج الجامع للاصول: ۳/ ۴۰، قال تعقيبا علی الحديث: رواه الشيخان-- و الترمذی، و فی الهامش قال: رواه أبو داود فی كتاب المهدی بلفظ:« لا يزال هذا الدين قائما حتی يكون عليكم اثنا عشر خليفة ...»، و راجع سنن أبی داود: ۲/ ۲۰۷.

[15] (۴ و ۵ و ۶) راجع: التاج الجامع للاصول: ۳/ ۴۰، قال تعقيبا علی الحديث: رواه الشيخان-- و الترمذی، و فی الهامش قال: رواه أبو داود فی كتاب المهدی بلفظ:« لا يزال هذا الدين قائما حتی يكون عليكم اثنا عشر خليفة ...»، و راجع سنن أبی داود: ۲/ ۲۰۷.

[16] (۱) مسند الإمام أحمد: ۶/ ۹۹، ح ۲۰۳۵۹.

[17] (۲) المستدرک علی الصحيحين: ۳/ ۶۱۸.

[18] (۳) إشارة الی قوله تعالی:\i وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوی* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ يُوحی\E .. النجم: ۳- ۴.

«إنّ الخلفاء بعدی اثنا عشر»[19]. و جاء الواقع الإمامی الاثنی عشری ابتداء من الإمام علی و انتهاء بالمهدی علیهما السّلام؛ لیکون التطبیق الوحید المعقول[20] لذلک الحدیث النبوی الشریف»[21].

لقد أخرج مسلم فی صحیحه من طریق قتیبة بن سعید، عن جابر ابن سمرة، قال: «دخلت مع أبی علی النبی صلی اللّه علیه و آله، فسمعته یقول: «إنّ هذا الأمر لا ینقضی حتی یمضی فیهم اثنا عشر خلیفة».

قال: ثمّ تکلم بکلام خفی علیّ، فقلت لأبی: ما قال؟ قال: «کلّهم من قریش»[22].

ثمّ أخرجه عن ابن أبی عمر، عنه، و عن هداب بن خالد، عنه، و عن نصر بن علیّ الجهضمی، عنه، و عن محمد بن رافع، عنه، کلّ من طریق.

و أخرجه عن أبی بکر بن أبی شیبة، عنه، من طریقین. و عن قتیبة بن سعید، عنه، من طریقین آخرین.

ص:۱۸

فهذه تسعة طرق للحدیث فی صحیح مسلم فقط، ناهیک عن کثرة طرقه الاخری فی کتب الحدیث لدی السنّة و الشیعة[23].

ص:۱۹

اضطراب مدرسة الخلفاء فی تفسیر الحدیث

---

[19] (۱) تقدم تخریج الحدیث.

[20] (۲) اضطرب العلماء فی تأویله بعد اطباقهم علی صحته، و ما أوردوه من مصادیق لا یمکن قبولها، بل إن بعضها غیر معقول تماما کإدخالهم یزید بن معاویة المجاهر بالفسق، المحکوم بالمروق و الکفر أو من هو علی شاکلته.

[21] (۳) بحث حول المهدی للسید الشهید الصدر قدّس سرّه: ۱۰۵- ۱۰۷ بتحقیق الدکتور عبد الجبار شرارة.

[22] (۴) صحیح مسلم: ۶/ ۳ کتاب الإمارة باب الناس تبع لقریش.

[23] (۱) راجع صحیح البخاری ۴: ۱۶۴- کتاب الأحکام، باب الاستخلاف، مسند أحمد: ۶/ ۹۴، الأحادیث ۳۲۵، ۲۰۳۶۶، ۲۰۳۶۷، ۲۰۴۱۶، ۲۰۴۴۳، ۲۰۵۰۳، ۲۰۵۳۴، سنن أبی داود ۴:

۱۰۶/ ۴۲۷۹- ۴۲۸۰، المعجم الکبیر، الطبرانی: ۲/ ۲۳۸/ ۱۹۹۶، سنن الترمذی: ۴/ ۵۰۱، مستدرک الحاکم: ۳/ ۶۱۸، حلیة الأولیاء، أبو نعیم: ۴/ ۳۳۳، فتح الباری: ۱۳/ ۲۱۱، صحیح مسلم بشرح النووی: ۱۲/ ۲۰۱، البدایة و النهایة، ابن کثیر: ۱/ ۱۵۳، تفسیر ابن کثیر: ۲/ ۲۴- فی تفسیر الآیة ۱۲ من سورة المائدة، کتاب السلوک فی دول الملوک، المقریزی: ۱/ ۱۳- ۱۵ من القسم الأول، شرح الحافظ ابن قیم الجوزیة علی سنن أبی داود: ۱۱/ ۳۶۳، شرح الحدیث ۴۲۵۹، شرح العقیدة الطحاویة: ۲/ ۷۳۶، الحاوی للفتاوی، السیوطی: ۲/ ۸۵، عون المعبود شرح سنن أبی داود، العظیم آبادی: ۱۱/ ۳۶۲، شرح الحدیث ۴۲۵۹، مشکاة المصابیح، التبریزی: ۳/ ۳۲۷، ۵۹۸۳، السلسلة الصحیحة، الألبانی حدیث رقم: ۳۷۶، کنز العمال: ۱۲/ ۳۲، ۳۳۸۴۸ و ۱۲/ ۳۳/ ۳۳۸۵۸ و ۱۲/ ۳۴/ ۳۳۸۶۱.

کما أخرج هذا الحدیث محدّثو الشیعة أیضا نذکر منهم الصدوق فی کمال الدین ۱:

۲۷۲. و الخصال ۲: ۴۶۹ و ۴۷۵، و قد تابع طرق الحدیث و رواته من الصحابة فی إحقاق الحق: ۱۳/ ۱- ۵۰.

و السؤال هنا، من هم هؤلاء الخلفاء؟

قبل أن نختار اجابة محدّدة على هذا السؤال لابد من طرح الاحتمالات المتصورة فی معنی هذا الحدیث، و مقصود النبی الأعظم صلی اللّه علیه و آله منه، و هنا احتمالان لا ثالث لهما، و هما:

۱- أن یکون مقصود النبی صلی اللّه علیه و آله هو بیان ما سیجری علیه الواقع السیاسی للامة من بعده، بنحو من التنبؤ و الکشف عن المستقبل، علی غرار تنبؤات کثیرة صدرت منه صلی اللّه علیه و آله فی شؤون مختلفة.

فیکون مفاد الحدیث هو الإخبار عن الواقع المستقبلی للامة.

و لنطلق علی هذا الاحتمال اسم «التفسیر المستقبلی».

۲- أن یکون مقصوده صلی اللّه علیه و آله اصدار قرار بتعیین اثنی عشر إماما و خلیفة من بعده، فیکون مفاده الإنشاء و التنصیب بلحاظ مقتضیات الشریعة، لا الاخبار بلحاظ الواقع المستقبلی. و لنطلق علی هذا الاحتمال اسم «التفسیر العقائدی».

و مقتضی البحث العلمی أن ننظر فی هذین الاحتمالین و نختار ما تؤیده الشواهد و الأدلّة و البراهین العقلیة و النقلیة، إلّا أن مدرسة الخلفاء لما آمنت منذ البدء بشرعیة نظام الخلافة و رفضت نظریة التعیین، و أقامت تراثها الکلامی و الفقهی علی هذا الأساس، وجدت نفسها أمام احتمال واحد لا مفرّ لها عنه، و هو الاحتمال

الأول، و اضطرت الی تأویل کل ما یعارضه، و الأخذ بهذه التأویلات مهما کانت تعسفیة و بعیدة عن القواعد العقلیة و العرفیة، باعتبارها أمرا لا بدیل عندها عنه.

و کان علیها أن تنظر الی الحدیث نظرة علمیة متحررة من أی فکرة مسبقة لتتأکد بنفسها من سقم التفسیر المستقبلی للحدیث، فإن کان النبی ینظر الی ما سیجری علیه الواقع فما الداعی الی التحدید باثنی عشر خلیفة مع امتداد المستقبل أکثر من هذا؟ و إن کان النبی ینظر الی الخلافة الصحیحة المطابقة للموازین الشرعیة فإن مدرسة الخلفاء لم تقطع و لم تجمع علی شرعیة غیر الخلفاء الأربعة، و من هنا اضطربت آراؤها فی تحدید اشخاص الخلفاء الاثنی عشر.

فالخلفاء الاثنا عشر عند ابن کثیر: الخلفاء الأربعة، و عمر بن عبد العزیز، و بعض بنی العباس، و استظهر أنّ المهدیّ منهم[۲۴].

[۲۴] (۱) تفسیر القرآن الکریم، ابن کثیر: ۲/ ۳۴- فی تفسیر الآیة ۱۲ من سورة المائدة.

و عند القاضى الدمشقى: الخلفاء الأربعة، و معاوية، و يزيد بن معاوية، و عبد الملک بن مروان و أولاده الأربعة (الوليد، و سليمان، و يزيد، و هشام)، و أخيرا عمر بن عبد العزيز[۲۵].

و عند ولى اللّه المحدّث فى قرة العينين- كما جاء فى عون

ص:۲۱

المعبود:- الخلفاء الأربعة، و معاوية، و عبد الملک بن مروان، و أولاده الأربعة، و عمر بن عبد العزيز، و وليد بن يزيد بن عبد الملک، ثمّ نقل عن مالک بن أنس أنّه أدخل عبد اللّه بن الزبير فيهم. و لكنه رفض قول مالک، مستدلا بما روى عن عمر و عثمان؛ عن النبى صلى اللّه عليه و آله ما يدل على أنّ تسلط ابن الزبير كان مصيبة من مصائب هذه الامة، ثم ردّ من أدخل يزيد بينهم، مصرحا بأنّه كان سيّئ السيرة[۲۶].

و قال ابن قيم الجوزية: «و أمّا الخلفاء: اثنا عشر، فقد قال جماعة منهم أبو حاتم و ابن حبّان و غيره: انّ آخرهم عمر بن عبد العزيز، فذكروا الخلفاء الأربعة، ثم معاوية، ثمّ يزيد ابنه، ثمّ معاوية بن يزيد، ثمّ مروان بن الحكم، ثم عبد الملک ابنه، ثمّ الوليد ابن عبد الملک. ثمّ سليمان بن عبد الملک. ثم عمر بن عبد العزيز، و كانت وفاته على رأس المائة، و هو القرن المفضل الذى هو خير القرون، و كان الدين فى هذا القرن فى غاية العزّة، ثم وقع ما وقع»[۲۷].

و قال النور بشتى: «السبيل فى هذا الحديث و ما يتعقبه فى هذا المعنى أنه يحمل على المقسطين منهم، فإنّهم هم المستحقون لاسم

ص:۲۲

الخليفة على الحقيقة، و لا يلزم أن يكونوا على الولاء، و إن قدّر أنهم على الولاء فإنّ المراد منه المسمون بها على المجاز، كذا فى المرقاة»[۲۸].

و عند المقريزى: الخلفاء الأربعة، ثمّ الإمام الحسن عليه السّلام قال: «و به تمّت أيام الخلفاء الراشدين»، و لم يدخل أحدا من بنى امية حيث صرّح بأنّ الخلافة صارت بعد الإمام الحسن عليه السّلام ملكا عضوضا، قال:

---

[۲۵] (۲) شرح العقيدة الطحاوية، القاضى الدمشقى: ۲/ ۷۳۶.

[۲۶] (۱) عون المعبود فى شرح سنن أبى داود: ۱۱/ ۲۴۶ شرح الحديث ۴۲۷، كتاب المهدى ط دار الكتب العلمية.

[۲۷] (۲) عون المعبود فى شرح سنن أبى داود: ۱۱/ ۲۴۵.

[۲۸] (۱) عون المعبود فى شرح سنن أبى داود: ۱۱/ ۲۴۴.

«أىّ فيه عسف و عنف!!»، كما لم يدخل أحدا من بنى العباس، مصرّحا أنّ فى خلافتهم «افترقت كلمة الإسلام و سقط اسم العرب من الديوان، و ادخل الأتراک فى الديوان، و استولت الديلم، ثمّ الأتراک، و صارت لهم دول عظيمة جدا، و انقسمت ممالک الأرض عدة أقسام، و صار بكلّ قطر قائم يأخذ الناس بالعسف، و يملكهم بالقهر»[۲۹].

و هكذا يلاحظ بوضوح اضطراب مدرسة الخلفاء فى تفسيرها لهذا الحديث، و وقوعها فى مطبّات يتعذّر عليها الخروج منها ما دامت تصر على التفسير المستقبلى له.

و قد قال السيوطى فى الحاوى: «لم يقع الى الآن وجود اثنى

ص:۲۳

عشر اجتمعت الامة على كلّ منهم»[۳۰].

و لو كان التفسير المستقبلى فى نفسه صحيحا و مقبولا لآمن به صحابة النبى صلى اللّه عليه و آله قبل غيرهم، و لظهر آثار ذلک على لسان الخلفاء أنفسهم، و لقال أولهم: أنا أول الخلفاء الاثنى عشر، و لقال الثانى و الثالث الى الثانى عشر مثل ذلک، و لكان مثل هذا الادّعاء افتخارا و شاهدا يساعد على إثبات شرعية كل منهم، بينما لم يسجّل التاريخ ادعاء لأى من الأسماء المذكورة فى سلسلة الخلفاء الاثنى عشر الافتراضية بمثل ذلک.

ثم إن الحديث يدل على أن فترة إمامة الأئمة الاثنى عشر تستوعب التاريخ الإسلامى الى نهايته بحيث تموج الأرض بأهلها من بعدهم. فقد روى أهل السنّة عن النبى صلى اللّه عليه و آله أنّه قال: «لا يزال هذا الدين قائما الى اثنى عشر من قريش، فإذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها»[۳۱].

و لم تمج الأرض بعد موت عمر بن عبد العزيز بأهلها، بل كان انتشار علوم الدين كالفقه و الحديث و التفسير فى القرنين الثالث و الرابع الهجريين، حتى بلغت علوم الدين قمتها فى الاتساع و الشمول بعد موت هؤلاء الخلفاء الاثنى عشر عند أهل السنّة، و المفروض أن تموج الأرض بأهلها!

ص:۲۴

و رووا أيضا، عن جابر بن سمرة: «لا تزال هذه الامة مستقيما أمرها، ظاهرة على عدوّها، حتى يمضى منهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش، ثم يكون المرج»[۳۲].

---

[۲۹] (۲) السلوک لمعرفة دول الملوک: ۱/ ۱۳- ۱۵ القسم الأول.

[۳۰] (۱) الحاوى للفتاوى: ۲/ ۸۵.

[۳۱] (۲) كنز العمال: ۱۲/ ۳۴ ح ۳۳۸۶۱، اخرجه ابن النجار، عن أنس.

[۳۲] (۱) كنز العمال: ۱۲/ ۳۲، حديث ۳۳۸۴۸.

و إذا كان المراد بالمرج هو القلق، و الاضطراب، و الالتباس، فيقتضى أن لا يكون شيء منه الى عهد عمر بن عبد العزيز، و لكن التاريخ لا يعرف فتنة عظم بها القلق، و اشتد بها الاضطراب، و كثر فيها التباس الحق بالباطل من فتنة معاوية و خروجه على خليفة المسلمين، و هذا يدل على أن المراد بالمرج هو أعظم من القلق و الاضطراب و الالتباس، و لعل المراد ترک الدين بالكلّية، و هذا ما لم يحصل إلّا عند اقتراب الساعة، التى يسبقها ظهور الإمام المهدى عليه السّلام، و ما يعقب انتقاله الى الرفيق الأعلى من أحداث.

ثم ما معنى ادخال الملوک فى عداد الخلفاء، فقد روى أهل السنّة، عن سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرة، و من رجال الشورى الذين عينهم عمر، أنه دخل على معاوية و قد تخلف عن بيعته، فقال: «السلام عليک أيها الملک، فقال له: فهلا غير ذلک؟ أنتم المؤمنون و أنا أميركم. قال: نعم، إن كنّا أمّرناک، و فى لفظ: نحن المؤمنون و لم نؤمّرک» و قد أنكرت عائشة على معاوية دعواه الخلافة، كما أنكرها ابن عباس، و الإمام الحسن عليه السّلام حتى بعد

الصلح[٣٣]، فهو من البغاة بالاتفاق؛ لحديث: «يا عمار تقتلک الفئة الباغية». و لست أدرى كيف يصحّ أن يكون الباغى على الخليفة الشرعى خليفة لرسول اللّه صلى اللّه عليه و آله على المؤمنين!!

و ما معنى ادخال يزيد الفاجر، المعلن فجوره و انتهاكه لحرمات اللّه تعالى- و هذا من أعجب العجب حقا! إذ كيف يصحّ للمسلم أن يجعل من يسفک دماء أهل بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله، و يغزو جنده المدينة المنورة و يقتلوا عشرة آلاف من أهلها حتى أنه لم يبق بدريا بعد موقعة الحرّة،- خليفة لرسول اللّه صلى اللّه عليه و آله، و كذلک الحال مع ملوک الشجرة الملعونة بنصّ القرآن الكريم، و لقد رآهم النبىّ فى منامه- و رؤيا الأنبياء صادقة كفلق الصبح- بأنّهم ينزون على منبره نزو القرود، باتفاق معظم المفسرين من أهل السنّة، و ذلک عند تفسيرهم الآية الستين من سورة الإسراء، بما لا حاجة الى تتبع كلماتهم.

و هكذا يظهر بوضوح ثلاث نتائج حاسمة هى:

١- فشل التفسير الاخبارى المستقبلى لحديث الخلافة الاثنى عشرية.

٢- دور العامل السياسى فى إلجاء مدرسة الخلفاء إلى ذلک التفسير.

٣- انحصار الحقيقة الشرعية بالتفسير العقائدى الإنشائى القائل بدلالة الحديث المذكور على نصب اثنى عشر إماما للمسلمين، و هو التفسير الذى قامت عليه أدلة عقلية و قرآنية و نبوية كثيرة جدا نجدها مبسوطة فى التراث الإمامى القديم و الحديث، فى مجالات التفسير و الحديث و علم الكلام و التاريخ.

---

[٣٣] (١) راجع الغدير للعلّامة الأمينى: ١/ ٢٦- ٢٧، فقد ذكر ذلک مخرجا عن كتب أهل السنّة.

و يبدو أن التاريخ قد أبى إلّا أن يبقى الأئمة الاثنا عشر من أهل البيت عليهم السّلام مصداقا وحيدا للحديث المذكور لا ينازعون فى ذلک حتى على مستوى الادّعاء، أولهم أمير المؤمنين عليه السّلام و آخرهم الإمام المهدى بن الحسن العسكرى عليه السّلام و فى ذلک ما لا يحصى كثرة من الأحاديث الشريفة الدالة عليه، و نشير هنا الى أحدها، و هو ما أخرجه الجوينى الشافعى فى فرائد السمطين، عن ابن عباس، عن النبى صلى اللّه عليه و آله أنّه قال: «أنا سيد النبيين، و على بن أبى طالب سيد الوصيين، و إنّ أوصيائى بعدى اثنا عشر أولهم علىّ بن أبى طالب، و آخرهم المهدىّ»[۳۴].

و من هنا احتمل بعض المحققين[۳۵] أن ما ذكرته كتب الحديث من أن جابر بن سمرة حينما خفى عليه بعض كلام النبى صلى اللّه عليه و آله فسأل أباه عما خفى عليه من كلامه صلى اللّه عليه و آله أجابه أبوه بأنه صلى اللّه عليه و آله قال: «كلهم من قريش»، احتمل أن جواب الأب فيه تحريف، ذلک أن الروايات

ص:۲۷

علّلت خفاء الجواب ب «ثم لغط القوم و تكلموا» و «ضجّ الناس» «فقال كلمة أصمّنيها الناس» «فصرخ الناس فلم أسمع ما قال» «فكبّر الناس و ضجّوا» «فجعل الناس يقومون و يقعدون». فكل هذه التعليلات لا تتناسب مع العبارة التى لم يسمعها الراوى، لأن جعل الخلافة فى قريش أمر يسرّهم و لا يوجب اللغط و الضجيج، و المتناسب مع هذه الحالات الموصوفة فى الروايات أن تكون الإمامة فى جماعة خاصة دون قريش، و هذا ما ذكره القندوزى فى ينابيع المودّة حيث ذكر أن العبارة التى قالها النبى صلى اللّه عليه و آله هى: «كلهم من بنى هاشم»[۳۶].

و حينما يتّضح فشل التفسير الاخبارى المستقبلى لحديث الإمامة الاثنى عشرية من جهة و حقانية التفسير العقائدى له من جهة ثانية، و ثبوت اسم الإمام المهدى عليه السّلام فى سلسلة أئمة أهل البيت عليهم السّلام و كونه هو الإمام الثانى عشر الذى يصلح اللّه به الأرض بعدما تمتلئ بالفساد من جهة ثالثة، لا يبقى بعد ذلک مجال للشک فى ثبوت المفهوم العقائدى للمهدوية الذى تصرّ عليه مدرسة أهل البيت عليهم السّلام.

ذلک أن الترابط الصميمى بين مسألة الإمامة الاثنى عشرية و المسألة المهدوية، من شأنه أن ينقل الى المسألة المهدوية النتائج

ص:۲۸

الثلاثة الحاسمة التى ظهرت على بساط البحث. فإن فشل التفسير المستقبلى للإمامة الاثنى عشرية يعنى بالنتيجة فشل هذا التفسير بالنسبة الى المهدوية أيضا، كما أن ثبوت المنشأ السياسى لهذا التفسير على صعيد الإمامة الاثنى عشرية يعنى بالنتيجة ثبوته بحق المهدوية أيضا، حيث إن مدرسة الخلفاء كما جعلت حديث الخلافة الاثنى عشرية اخباريا مستقبليا كتفريع منها على القول بصحة نظرية السقيفة و الخلافة و شرعيتها، كذلک رأت ضرورة الجنوح بالمسألة المهدوية صوب الرؤية المستقبلية، فرارا من القول بإمامة

---

[۳۴] (۱) فرائد السمطين: ۲/ ۳۱۳، ح ۵۶۴.

[۳۵] (۲) الغدير و المعارضون، السيد جعفر مرتضى العاملى: ۷۰- ۷۲.

[۳۶] (۱) ينابيع المودّة: ۳/ ۱۰۴ باب ۷۷.

أهل البيت عليهم السّلام و عدم شرعية نظام الخلافة، كما أن ثبوت حقّانية التفسير العقائدى لحديث الإمامة الاثنى عشرية يعنى بالنتيجة ثبوت حقّانية المفهوم العقائدى للمسألة المهدوية.

ص:٢٩

الفصل الثانى خصائص مفهوم المهدوية عند أهل البيت عليهم السّلام

و بعدما تم الاثبات العقائدى لمفهوم المهدوية عند أهل البيت عليهم السّلام ندخل فى مرحلة جديدة من البحث، و هى مرحلة البحث فى الخصائص المترتبة على هذا المفهوم، و اثبات أنها خصائص واقعية لها تحقق تأريخى و شرعى، و أن الاعتقاد بها لا يلزم منه خدشة عقائدية و لا مفارقة تأريخية، و هى:

الخصوصية الاولى: تحقق ولادة الإمام المهدى فى أجواء سرّية مقصودة لا بد منها

و مع ثبوت المفهوم المهدوى عند أهل البيت عليهم السّلام يصبح واضحا أن من أبرز مقتضيات هذا المفهوم أن تكون ولادة الإمام الثانى عشر مقرونة بالسرّية و الكتمان حتى تتسنى له الغيبة بعد ذلک، و الاختفاء عن الأنظار الى مكان آمن يختاره اللّه له الى حين يأذن له بالظهور، باعتباره الكوكب الأخير فى سماء الإمامة، و الإمام الذى لا إمام للمسلمين بعده، و هذا المعنى يستلزم حياة خفية و عمرا مديدا و ولادة سرّية، حتى يبقى موقع الإمامة مشغولا على مدى الدهر بإمام من الأئمة الاثنى عشر عليهم السّلام حى أو غائب.

ص:٣٠

و حينئذ، فمن غير المناسب أن يقال: لماذا لم تكن ولادة الإمام، و وجوده بعد أبيه أمرا مشهودا، ملموسا لكل من أراد حتى نصدق به؟ فإنه لو كان كذلک لما تيسرت له الغيبة و الاختفاء عن الأنظار، و لما كان هو الإمام الثانى عشر، و لكان الأئمة أكثر من هذا العدد، و هذا ما يخالف الأدلّة النبوية المذكورة آنفا، فالولادة السرّية من المستلزمات و المقتضيات الطبيعية لتلک الأدلة.

و هذا ما يوضح أن الاثبات الخارجى لقضية، من نوع قضية ولادة الإمام المهدى و وجوده و حياته، لا يمكن الاكتفاء فيه بالبحث التاريخى، ما دمنا نؤمن منذ البداية أنها مقرونة بدرجة شديدة من السرّية و الكتمان، بل هو إثبات عقائدى تاريخى تقوم فيه العقيدة بلعب دور أساسى، فيما يلعب البحث التاريخى فيها دورا تكميليا، لأننا نذعن منذ البدء بوجود المنكرين لها و المشككين فيها، ما دامت القضية سرية مكتومة، و المطّلعون عليها عدد محدود من الناس، بنحو يسمح للآخرين حتّى و إن كانوا من الحلقات القريبة من الإمام، و من خلصاء الشيعة بالانكار و التشكيک ماداموا محجوبين عن الحقيقة السرية المكتومة، بحيث لو سألهم سائل عن ولادة الإمام المهدى و وجوده و حياته، لأنكروا ذلک، و لنقلوا عن سائر الناس أنهم أيضا لم يروه و لم يسمعوا بخبر ولادته و وجوده. فنحن لا نتحدث عن قضية مادية

ص:٣١

محسوسة بكل أبعادها و جهاتها و تخضع لتسجيل تاريخى كامل حتى نعتمد فى إثباتها و إنكارها على المؤرخين و الرواة، و إنما نتحدث من حيث الأساس عن قضية غيبية، سوى أنها ليست غيبية بنحو مطلق و إنما لها شعاع محسوس يطلع عليه أفراد منتخبون، يطلعون على ولادته فيشهدون عليها، و على غيبته الصغرى فيشهدون عليها، و على غيبته الكبرى فيشهدون عليها، و لهذا قلنا إن مفهوم أهل البيت عليهم السّلام عن المهدوية مفهوم عقائدى.

بمعنى أن إنكار المنكرين لا يكون فى مثل قضية الإمام المهدى عليه السّلام حجة تاريخية منطقية لإثبات عدم وجوده، ما دمنا قد أذعنا منذ البداية أن القضية سرية مكتومة، و من الضرورى الاكتفاء من ناحية البحث التأريخى باثبات وجود من رآه و اطلع عليه و سمع بوجوده و أذعن له، دون الالتفات الى إنكار المنكرين الذى يعتبر ظاهرة طبيعية بالنسبة الى قضية سرية مكتومة.

و هنا سنطوى بحثين: بحث فى الشواهد الدالة على ولادة الإمام و استمرار وجوده، و بحث آخر نناقش فيه أدلة المنكرين له عليه السّلام.

ص:٣٢

الشواهد التاريخية الدالة على وجود الإمام المهدى عليه السّلام

و هذه ناحية واسعة تظافرت عليها أرقام تاريخية كثيرة جدا نصنفها فى عدّة نقاط:

١- شهادة الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام بولادة ابنه الإمام المهدى عليه السّلام

و فى ذلک أحاديث كثيرة نقلها أثبات الشيعة و رواتهم، ننقل منها:

الحديث المروى عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن اسحاق، عن أبى هاشم الجعفرى، قال: «قلت لأبى محمد عليه السّلام:

جلالتک تمنعنى من مسألتک، فتأذن لى أن أسألک؟ فقال: سل. قلت:

يا سيدى هل لک ولد؟ فقال: نعم»[٣٧].

و فى هذا الحديث الكفاية سندا و دلالة، فهذه كتب الرجال تشهد بجلالة محمد بن يحيى أبى جعفر العطار القمّى الذى لا زال قبره الى الآن معروفا و مشهورا يزار، و تشهد لعلو مكانة أحمد بن اسحاق بن عبد اللّه بن سعد بن مالک بن الأحوص الأشعرى أبى على القمّى، عند الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام، و تشهد أيضا لمنزلة داود بن القاسم بن اسحاق بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب أبى هاشم الجعفرى .. ثمّ انظر قلّة الوسائط فى إسناد هذا الحديث، الذى يعبر عن أمثاله بقرب الإسناد الذى يعتبر من الشواهد المؤيدة للحديث.

---

[٣٧] (١) اصول الكافى: ١/ ٣٢٨، كتاب الحجّة باب الإشارة و النص الى صاحب الدار.

۲- شهادة القابلة

و هی اخت إمام، و عمة إمام، و بنت إمام، العلوية الطاهرة حکيمة بنت محمد الجواد، و اخت الإمام الهادی، و عمة الإمام العسکری، حيث صرّحت بمشاهدة ولادة الإمام الحجة عليه السّلام ليلة مولده[۳۸]، و هی التی تولّت أمر نرجس والدة الإمام الحجة عليه السّلام، و بإذن من أبيه الحسن العسکری عليهما السّلام[۳۹].

۳- عشرات الشهادات برؤية الإمام عليه السّلام

و هنا قائمة طويلة من الأسماء، ممن رأی الإمام المهدی و اتّصل به و شهد برؤيته إياه، سجلتها المصادر التاريخية، و جمعها بعض المصنفين فی مصنفات خاصة، مثل: (کتاب تبصرة الولی فيمن رأی القائم المهدی) للسيد هاشم البحرانی ذکر فيه (۷۹) شخصا شهد برؤية الإمام عليه السّلام فی طفولته أو فی غيبته الصغری، و ذکر أسماء المصادر التی اعتمد عليها فی ذلک، و أحصی الشيخ أبو طالب التجليل التبريزی زهاء (۳۰۴) أشخاص ممن رأی الإمام عليه السّلام، و شهد به[۴۰]. و أحصی الشيخ الصدوق- المتوفی سنة (۳۸۱ ه)

بغيبة الإمام المهدی عليه السّلام قريب جدا- (۶۴) شخصا شهد برؤية الإمام عليه السّلام و کان کثير منهم وکلاء له[۴۱]، و هم من مدن شتی.

فمن وکلاءه: من أهل أذربيجان: القاسم بن العلاء. و من الأهواز:

محمد بن إبراهيم بن مهزيار. و من بغداد: حاجز البلالی، و عثمان ابن سعيد العمری، و محمد بن عثمان بن سعيد العمری، و العطار.

و من الکوفة: العاصمی. و من قم: أحمد بن إسحاق. و من نيسابور:

محمد بن شاذان. و من همدان: البسامی، و محمد بن أبی عبد اللّه الکوفی الأسدی، و محمد بن صالح.

أمّا من رآه عليه السّلام من غير الوکلاء، منهم: من أهل اصفهان: ابن باشاذاله. و من الأهواز: الحصينی. و من بغداد: أحمد بن الحسن، و إسحاق الکاتب من بنی نوبخت، و أبو عبد اللّه الخيبری، و أبو عبد اللّه بن فروخ، و أبو عبد اللّه الکندی، و أبو القاسم

---

[۳۸] (۱) اصول الکافی: ۱/ ۳۳۰، کتاب الحجة، باب تسمية من رآه عليه السّلام.

[۳۹] (۲) کمال الدين: ۲/ ۴۲۴، باب ۴۲.

[۴۰] (۳) من هو المهدی، أبو طالب تجليل التبريزی: ۴۶۰- ۵۰۶.

[۴۱] (۱) کمال الدين: ۲/ ۴۴۲ باب ۴۳، و بحار الأنوار: ۵۲/ ۳۰ باب ۲۶.

بن أبی حلیس، و أبو القاسم بن دبیس، و مسرور الطباخ مولی أبی الحسن علیه السّلام، و النیلی، و هارون الفزاری. و من الدینور: أحمد ابن أخی الحسن بن هارون، و عمه الحسن بن هارون. و من الری: أبو جعفر الرفّاء، و علیّ بن محمد، و القاسم بن موسی، و ابن القاسم بن موسی، و أبو محمد بن هارون، و محمد بن محمد الکلینی. و من قزوین: علیّ بن

ص:۳۵

أحمد، و مرداس. و من قم: الحسن بن النضر، و الحسین بن یعقوب، و علیّ بن محمد بن إسحاق، و محمد بن إسحاق، و محمد بن محمد.

و من مصر: أبو رجاء. و من نصیبین: أبو محمد بن الوجناء النصیبی.

و من همدان: جعفر بن حمدان، و محمد بن کشمرد، و محمد بن هارون. و من الیمن: ابن الأعجمی، و الجعفری، و الحسن بن الفضل ابن یزید، و أبوه الفضل بن یزید، و الشمشاطی. کما ذکر أیضا من رآه من أهل شهرزور، و الصیمرة، و فارس، و قابس و مرو.

فهل یعقل اتفاق هؤلاء جمیعا و تواطؤهم علی الکذب؟ و فیهم اثبات ثقات صرحت کتب الرجال بتوثیقهم؟

۴- تعامل السلطة العباسیة مع الحدث

لقد تعاملت السلطة العباسیة بعد وفاة الإمام الحسن العسکری علیه السّلام مع عائلته تعاملا یدل علی خیفتها من مولود خطیر خفی عنها، فراحت تبحث عنه بکل ما اوتیت من وسیلة و قدرة، حیث أمر المعتمد العباسی المتوفی سنة (۲۷۹ ه) شرطته بتفتیش دار الإمام الحسن العسکری تفتیشا دقیقا و البحث عن الإمام المهدی علیه السّلام، و أمر بحبس جواری أبی محمد علیه السّلام، و اعتقال حلائله یساعدهم علی ذلک جعفر الکذّاب، و أجری علی مخلّفی أبی محمد علیه السّلام بسبب ذلک کلّ عظیمة، من اعتقال، و حبس و تهدید، و تصغیر،

ص:۳۶

و استخفاف و ذلّ[۴۲].

کلّ هذا و الإمام المهدی علیه السّلام فی الخامسة من عمره، و لا یهم المعتمد العمر بعد أن عرف أنّ هذا الصبی هو الإمام الذی سیهد عرش الطاغوت لما شاع و انتشر من الخبر، بأنّ ثانی عشر أهل البیت علیهم السّلام سیملأ الدنیا قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا، فکان موقفه من المهدیّ، کموقف فرعون من موسی علیه السّلام الذی ألقته امّه- خوفا علیه- فی الیمّ صبیا.

[۴۲] (۱) الإرشاد، الشیخ المفید: ۲/ ۳۳۶.

و لم يكن المعتمد العباسى وحده قد عرف هذه الحقيقة، و إنّما عرفها من كان قبله كالمعتز، و المهتدى، و لهذا كان الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام حريصا على أن لا ينتشر خبر ولادة الإمام المهدى إلّا بين أفراد منتخبين من شيعته و مواليه.

لقد كان تصرّف السلطة كاشفا عن أنّها و سائر الناس قد أدركوا تماما أنّ حديث جابر بن سمرة لا ينطبق عليهم و لا على من سبقهم من الامويين، و إنّما مصداقه الوحيد هم أهل بيت النبوّة، و مهبط الوحى و التنزيل.

و إلّا فأىّ خطر يهدد كيانهم فى طفل لم يتجاوز عمره خمس سنين، لو لم يعتقدوا أنّه هو المهدى المنتظر الذى تحدثت عنه الأحاديث

ص:٣٧

المتواترة؟! يقول أحد الباحثين: و لو لم يكن مولودا حقا فما معنى حبس الجوارى و بث القابلات لتفتيش من بهنّ حمل، و مراقبتهنّ مدة لا تصدّق، إذ بقيت إحداهنّ تحت المراقبة لمدة سنتين! كلّ هذا مع مطاردة أصحاب الإمام العسكرى عليه السّلام و التشنيع عليهم، مع بث العيون للتجسّس عن خبر المهدى عليه السّلام، و كبس داره بين حين و آخر؟

ثم ما بال السلطة لم تقتنع بما زعمه جعفر من أنّ أخاه عليه السّلام مات و لم يخلّف؟

أما كان بوسعها أن تعطيه حقّه من الميراث و ينتهى كلّ شىء من غير هذا التصرّف الأحمق الذى يدلّ على ذعرها و خوفها من ابن الحسن عجل اللّه تعالى فرجه الشريف؟!

نعم، قد يقال بأنّ حرص السلطة على إعطاء كل ذى حقّ حقه هو الذى دفعها الى التحرى عن وجود الولد لكى لا يستقل جعفر بالميراث وحده بمجرد شهادته!

فنقول: ليس من شأن السلطة الحاكمة آنذاك أن تتحرّى عن هذا الأمر بمثل هذا التصرّف المريب، بل كان على الخليفة العباسى أن يحيل دعوى جعفر الكذاب الى أحد القضاة، لا سيّما و أنّ القضية من قضايا الميراث التى يحصل مثلها كلّ يوم مرات، و عندها سيكون بوسع القاضى أن يفتح محضرا تحقيقيا، فيستدعى مثلا

ص:٣٨

عمة الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام، و امه، و جوارى الإمام، و المقربين الى الإمام الحسن العسكرى من بنى هاشم، ثمّ يستمع الى أقوالهم، و يثبت شهاداتهم، ثمّ ينهى كل شىء، و لكن وصول هذه القضية الى أعلى رجل فى السلطة، و بهذه السرعة و لمّا يدفن الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام، و خروج القضية عن دائرة القضاء مع أنّها من اختصاصاته، و من ثم تصرف السلطة الغاشمة على نحو ما مرّ، كل ذلک يقطع بأنّ السلطة كانت على يقين بأن المهدى الموعود هو الحلقة الأخيرة من حلقات السلسلة المطهّرة التى لا يمكن أن تنقطع بموت الإمام الحادى عشر عليه السّلام، خصوصا بعد أن تواتر لدى الجميع قوله صلى اللّه عليه و آله: «و إنّهما- أى: الكتاب، و العترة- لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» و معنى عدم ولادة المهدى عليه السّلام، أو عدم

استمرار وجوده، انقراض العترة، و هذا ما لا يقوله أحد ممّن تسمى (بإمرة المؤمنين) من العباسيين؛ لأنّه تكذيب لنبيّنا الأعظم صلى اللّه عليه و آله، بل لا يقوله أحد من المسلمين إلّا من هان عليه أمر هذا التكذيب، أو من خدع نفسه بتأويل حديث الثقلين و صرف دلالته الى ما لم يأت به سلطان مبين»[۴۳].

ص:۳۹

۵- اعترافات علماء السنّة بولادة الإمام المهدى عليه السّلام

قال السيد ثامر العميدى فى هذا الصدد:

«بلغت اعترافات الفقهاء، و المحدثين، و المفسرين، و المؤرخين، و المحققين، و الادباء، و الكتّاب من أهل السنّة أكثر من مائة اعتراف صريح بولادة الإمام المهدى عليه السّلام، و قد صرح ما يزيد على نصفهم بأنّ الإمام محمد بن الحسن المهدىّ عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، هو الإمام الموعود بظهوره فى آخر الزمان.

و قد رتّبت هذه الاعترافات بحسب وفيات أصحابها، فوجدتها متصلة الأزمان، بحيث لا تتعذر معاصرة صاحب التصريح اللاحق، لصاحب التصريح السابق، و ذلک ابتداء من عصر الغيبة الصغرى الى وقتنا الحاضر، و سوف نذكر أقوال بعضهم التى وقفت عليها فى مصادرهم ريثما يأتى دورهم، مع الاكتفاء بذكر اسماء الآخرين فقط دون التعرض لأقوالهم؛ لتعذر تسجيلها فى هذا الفصل، حيث بلغت أقوال تسعة و عشرين واحدا منهم فى كتاب إلزام الناصب ما يزيد على مائة صحيفة[۴۴]، فكيف الحال مع تسجيل أقوالهم كلّهم؟

على أنّ ما سنذكره فى المتن دون الإشارة الى مصدره فى الهامش، هو دليل أخذنا ذلک من كتب الشيعة الإمامية التى سبقت الى هذا

ص:۴۰

المجال مع اعتنائها بتسجيل رقم الجزء، و رقم الصحيفة مع مكان و سنة الطبع؛ و لعلّ من أوسعها فى هذا الباب كتاب «المهدىّ المنتظر فى نهج البلاغة» للشيخ مهدىّ فقيه إيمانى، حيث ذكر فيه مائة و رجلين من رجالات أهل السنّة الذين اعترفوا بذلک[۴۵]، مكتفيا بذكر أسمائهم و مصادرهم بأجزائها و صحائفها دون التعرّض لأقوالهم، و ربما اضطرّ الى تعيين واسطته اليهم بدقة، و قد

---

[۴۳] (۱) دفاع عن الكلينى: ۱/ ۵۶۷- ۵۶۸ لحسن هاشم ثامر العميدى.

[۴۴] (۱) إلزام الناصب فى إثبات الحجّة الغائب(عجّل فرجه) الشيخ على اليزدى الحائرى:

۱/ ۳۲۱- ۴۴۰.

[۴۵] (۱) المهدىّ المنتظر فى نهج البلاغة/ الشيخ مهدى فقيه إيمانى: ۱۶- ۳۰.

فاته ما يقرب من ثلاثين اسما، و كان جلّ اعتمادنا عليه، و لم نستدرک عليه شيئا؛ لأنّ ما فاته سبقنى اليه غيرى[۴۶]، حتى عاد دورى فى هذا الدليل مقتصرا على الجمع و الترتيب بحسب القرون»[۴۷].

ثم ذكر أسماء (۱۲۸) مصنفا من مصنفات أهل السنّة ذكر الإمام المهدى فى كتاب من كتبه بعنوان: الإمام الثانى عشر من أئمة أهل البيت عليهم السّلام.

منهم من عاصر الميلاد و الغيبة الصغرى، و لشهادات هؤلاء قيمتها

ص:۴۱

التاريخية المعروفة، و من بينهم:

۱- أبو بكر الروياني، محمد بن هارون (المتوفّى سنة ۳۰۷ ه) فى كتابه (المسند).

۲- أحمد بن إبراهيم بن على الكندى، من تلامذة ابن جرير الطبرى المتوفى سنة (۳۱۰ ه).

۳- محمّد بن أحمد بن أبى الثلج، أبو بكر البغدادى (المتوفّى سنة ۳۲۲ ه) فى (مواليد الأئمة) و هو مطبوع ضمن كتاب (الفصول العشرة فى الغيبة) للشيخ المفيد، و مع كتاب (نوادر الراوندى) ط النجف الأشرف سنة (۱۳۷۰ ه) و ممّن هو قريب العهد به من الأعلام الكبار: الخوارزمى (المتوفّى سنة ۳۸۷ ه) فى (مفاتيح العلوم: ۳۲، ۳۳) طبعة ليدن- ۱۸۹۵ م.

ص:۴۲

وقفة مع المنكرين

اتّضح مما سبق أن المسألة المهدوية مسألة عقائدية قبل أن تكون تاريخية، و أن الدليل عليها عقائدى قبل أن يكون تاريخيا، و اتّضح أيضا عدد من الأدلّة التاريخية الدالة عليه، و اتّضح أيضا أن قضية سرية غيبية، كقضية الإمام المهدى عليه السّلام تستلزم بطبعها وجود المنكرين لها، فإن الذى يختفى عن أنظار الناس لغرض من الأغراض، يقصد من ذلک أن لا يراه أحد من الناس، بحيث إذا سئل الناس عنه قالوا: لم نره، حتى لو كانوا من أقرب المقربين إليه، و ذكرنا أن انكار مثل هؤلاء فى قضية مخفية لا يصح دليلا على عدم الوجود، و هذه هى المفارقة الأساسية التى وقع فيها منكروا ولادة و وجود الإمام المهدى عليه السّلام، فانّهم ذهبوا يفتشون فى التاريخ عن شواهد من هذا القبيل، فلما عثروا على شىء منها اعتبروه دليلا على عدم ولادة و وجود الإمام

---

[۴۶] (۲) الإمام الثانى عشر، السيد محمد سعيد الموسوى: ۲۷- ۷۰ و قد استدرک عليه محقق الكتاب ثلاثين رجلا من أهل السنّة كما فى هامش المصدر: ۷۲- ۸۹، المهدىّ الموعود المنتظر عند أهل السنّة و الإمامية، الشيخ نجم الدين العسكرى: ۱/ ۲۲۰- ۲۲۶.

[۴۷] (۳) دفاع عن الكافى: ۱/ ۵۶۸.

المهدی علیه السّلام، مثل اختلاف الشیعة فی زمن الولادة و فی اسم الإمام، و شهادة جعفر الکذاب عم الإمام المهدی بأن أخاه مات و لم یعقّب.

و مناقشتنا الأساسیة مع هؤلاء أن المنهج التاریخی صالح للتحکیم فی مسائل محسوسة تقع بکاملها تحت نظر الرواة و المؤرخین، مثل واقعة صفین، و واقعة کربلاء ... الخ، و لیس صالحا للتحکیم فی مسائل غیبیة عقائدیة فی جوهرها، و لها شعاع محسوس عند أفراد منتخبین بحیث لو سئل عامة الناس عنها

ص:۴۳

لأنکروها. فکیف تجعلون إنکار عامة الناس دلیلا علی انعدام قضیة یؤمن أصحابها سلفا بأنها لیست قابلة للمشاهدة الحسیّة، إلّا من قبل أفراد منتخبین؟

إن علی من یرید مناقشة المسألة المهدویة أن یبدأ معها من بدایتها العقائدیة، و لا یبدأ معها من ذیولها التاریخیة، لأن القضیة السریة المکتومة بنحو مقصود، عن أعین أقرب المقرّبین لا یمتنع علیها ظهور اختلافات فیها، من قبیل اختلاف زمن ولادة الإمام، و اختلاف اسم ام الإمام، و لا یضرها شهادة کشهادة جعفر الکذاب، لأن الجواب الطبیعی فی مثل هذه الحالة أن یقال: إن الاختلاف فی سنة الولادة، و اسم ام الإمام، کان ظاهرة طبیعیة ناشئة من إصرار الإمام الحسن العسکری علی اخفاء تفاصیل القضیة إخفاء تاما عن أعین أقرب المقربین، تحرزا من وصول النبأ الی السلطة العباسیة، کما أن شهادة جعفر الکذاب بأن أخاه مات و لم یعقّب کانت من هذا القبیل، حیث أراد الإمام الحسن العسکری علیه السّلام أن یخفی مولوده علی أخیه و یظهر الأمر أمامه کما لو لم یکن للإمام علیه السّلام تجاه أخیه منطقیا حتی لو لم یکن أخوه کذّابا مشهودا علیه بالفسق، کیف و جعفر الکذّاب مشهود علیه بذلک[۴۸].

ص:۴۴

الخصوصیة الثانیة: الإمامة المبکرة

و من مقتضیات المفهوم المهدوی عند أئمة أهل البیت علیهم السّلام الاعتقاد بالإمامة المبکرة للإمام المهدی علیه السّلام، و هذه الخصوصیة تارة ننظر إلیها من الزاویة الإسلامیة بقصد البرهنة و الإثبات و دفع ما یمکن أن یرد علیها من اشکال دینی، و اخری من زاویة الواقع لبیان أن هذه الإمامة؛ إمامة واقعیة تحمل المؤهلات الکافیة، و لیست إمامة مفترضة أو مدّعاة.

و إذا نظرنا إلیها من الزاویة الإسلامیة وجدنا ضرورة تمییز مسألة الإمامة أوّلا، هل هی مسألة عقائدیة؟ أم أنها مسألة تشریعیة؟

---

[۴۸] (۱) انظر اصول الکافی: ۱/ ۴۲۱، کتاب الحجّة، باب مولد أبی محمد الحسن بن- علی علیه السّلام،- کمال الدین: ۱/ ۴۰، مقدمة المصنف،، الإرشاد: ۲/ ۳۲۱، إعلام الوری بأعلام الهدی، الفضل بن الحسن الطبری: ۳۵۷، انظر کذلک کمال الدین: ۲/ ۴۷۵، باب ۴۳ من شاهد القائم علیه السّلام.

فإن كانت مسألة عقائدية- كما هو معتقد الشيعة- فإننا نجد القرآن يصرّح بثبوت النبوّة- و هى مسألة عقائدية- للصبى، قال تعالى:

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[۴۹]، و إن كانت مسألة تشريعية، فإن من واضحات الشريعة الاسلامية ثبوت الحجر على الصغير، و من كان محجورا عليه، فاقدا للولاية على نفسه كيف تتاح له الولاية على غيره؟ فلا تكون إمامة الصبى مشروعة حينئذ.

و قد اختلف المسلمون فى هذه المسألة، فمدرسة المذاهب

ص:۴۵

الأربعة جعلت الخلافة و الإمامة و الولاية من شؤون الشريعة، و أعمال المكلفين، بينما آمنت مدرسة أهل البيت عليهم السّلام بأنها مسألة عقائدية و من جملة اصول الدين التى هى من شؤون رب العالمين، و ليست من خصائص المكلّفين و أعمال العباد. و حينئذ فمدرسة أهل البيت عليهم السّلام حينما تعتقد بالإمامة المبكرة لعدد من الأئمة عليهم السّلام و من جملتهم الإمام المهدى عليه السّلام فهى منسجمة مع نفسها فى هذا المضمار، لا يرد عليها اشكال من جهة عقائدية، مادام القرآن يصرّح بالنبوة المبكرة ليحيى عليه السّلام، و لا من جهة تشريعية مادامت المسألة من وجهة نظر أهل البيت عليهم السّلام خارجة عن نطاق التشريع و داخلة فى نطاق العقيدة. و أحكام الشريعة فى باب الحجر على الصغير تنطبق على المكلّفين و لا تنطبق على اللّه سبحانه و تعالى، لأن الشريعة خطابات إلهية موجهة إلى المكلّفين.

و هكذا يتّضح أن غرضنا من الاستشهاد بنبوة يحيى عليه السّلام هو لبيان أن الإمامة كالنبوة مسألة عقائدية، و أن المسألة العقائدية لا تخضع لمقاييس الناس، بل لا تخضع حتى لمقاييس الشريعة التى جاءت لتنظيم سلوك المكلفين فلا يصح تطبيقها على رب العالمين، فهى- أى نبوة يحيى- تفيدنا أن المسألة العقائدية تتقوم بالدليل و البرهان، فإذا قام البرهان العقائدى على إمامة الصغير فلا بد من الإذعان بها كما أذعنا بنبوة الصغير حينما قام البرهان العقائدى عليها، و حينئذ

ص:۴۶

فلا معنى لما قد يقال من أن الاستشهاد بنبوة يحيى عليه السّلام لا محلّ له، لأنها مذكورة صراحة فى القرآن بخلاف المسألة المهدوية.

---

[۴۹] (۱) مريم: ۱۲.

و من هنا فإن اعتراض ابن حجر الهيثمى و أمثاله على إمامة الإمام المهدى ساقط لا أساس له، حيث كتب و باسلوب غير مناسب يقول: «ثم المقرر فى الشريعة المطهرة أن الصغير لا تصح ولايته، فكيف ساغ لهؤلاء الحمقى المغفلين أن يزعموا إمامة من عمره خمس سنين ...»[٥٠].

فقد اتّضح أن هذا ليس من مقررات الشريعة و انما من مقررات فقههم الذى لا يصح لهم الزامنا به.

و إذا نظرنا إليها من زاوية الواقع التاريخى وجدنا أن المهدى عليه السّلام خلف أباه فى إمامة المسلمين و هو ابن خمس سنين، و هذا يعنى أنه كان إماما بكلّ ما فى الإمامة من محتوى فكرى و روحى فى وقت مبكر جدا من حياته الشريفة.

يقول السيد الشهيد الصدر رضى اللّه عنه فى هذا المضمار:

«و الإمامة المبكرة ظاهرة سبقه إليها عدد من آبائه عليهم السّلام، فالإمام محمد بن على الجواد عليه السّلام تولّى الإمامة و هو فى الثامنة من عمره[٥١]،

و الإمام على بن محمد الهادى تولّى الإمامة و هو فى التاسعة[٥٢] من عمره، و الإمام أبو محمد الحسن العسكرى[٥٣] والد القائد المنتظر تولّى الإمامة و هو فى الثانية و العشرين من عمره، و يلاحظ أن ظاهرة الإمامة المبكرة بلغت ذروتها فى الإمام المهدى و الإمام الجواد، و نحن نسميها ظاهرة لأنها كانت بالنسبة إلى عدد من آباء المهدى عليه السّلام تشكل مدلولا حسيّا عمليّا عاشه المسلمون، و وعوه فى تجربتهم مع الإمام بشكل و آخر، و لا يمكن أن نطالب بإثبات لظاهرة من الظواهر أوضح و أقوى من تجربة امّة[٥٤]، و نوضح ذلک ضمن النقاط التالية:

أ- لم تكن إمامة الإمام من أهل البيت مركزا من مراكز السلطان، و النفوذ التى تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن، و يدعمها النظام الحاكم كإمامة الخلفاء الفاطميين، و خلافة الخلفاء العباسيين، و إنما كانت تكتسب ولاء قواعدها الشعبية الواسعة عن طريق التغلغل الروحى، و الإقناع الفكرى لتلک القواعد بجدارة هذه الإمامة لزعامة

---

[٥٠] (١) الصواعق المحرقة: ٢٥۶، دار الكتب العلمية.

[٥١] (٢) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكى: ٢٥٣، و الإرشاد للشيخ المفيد: ٢/ ٢٧۴ و ما بعدها.

[٥٢] (١ و ٢) التتمة فى تواريخ الأئمة، السيد تاج الدين العاملى من أعلام القرن الحادى عشر الهجرى، نشر مؤسسة البعثة- قم، و راجع: الصواعق المحرقه لابن حجر: ٣١٢- ٣١٣، إذ ذكر طرفا من سيرة الإمام و كراماته.

[٥٣] (١ و ٢) التتمة فى تواريخ الأئمة، السيد تاج الدين العاملى من أعلام القرن الحادى عشر الهجرى، نشر مؤسسة البعثة- قم، و راجع: الصواعق المحرقه لابن حجر: ٣١٢- ٣١٣، إذ ذكر طرفا من سيرة الإمام و كراماته.

[٥۴] (٣) الأرشاد/ الشيخ المفيد: ٢/ ٢٨١ و ما بعدها، الصواعق المحرقة: ٣١٢- ٣١٣. فقد أوردا قصة المحاورة التى دارت بين الإمام الجواد عليه السّلام و بين يحيى بن أكثم زمن المأمون، و كيف استطاع الإمام عليه السّلام أن يثبت أعلميته و قدرته على إفحامه و هو فى تلک السن المبكرة.

الإسلام، و قيادته على اسس روحية و فكرية.

ب- إنّ هذه القواعد الشعبية بنيت منذ صدر الإسلام، و ازدهرت و اتسعت على عهد الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام، و أصبحت المدرسة التى رعاها هذان الإمامان فى داخل هذه القواعد تشكل تيارا فكريا واسعا فى العالم الإسلامى، يضم المئات من الفقهاء و المتكلمين و المفسرين و العلماء فى مختلف ضروب المعرفة الإسلامية و البشرية المعروفة و قتئذ، حتى قال الحسن بن على الوشا: إنى دخلت مسجد الكوفة فرأيت فيه تسعمائة شيخ[۵۵] كلهم يقولون حدثنا جعفر بن محمد.

ج- إن الشروط التى كانت هذه المدرسة و ما تمثله من قواعد شعبية فى المجتمع الإسلامى، تؤمن بها و تتقيد بموجبها فى تعيين الإمام و التعرف على كفائته للإمامة، شروط شديدة؛ لأنها تؤمن بأنّ الإمام لا يكون إماما إلّا إذا كان أعلم علماء عصره[۵۶].

د- إنّ المدرسة و قواعدها الشعبية كانت تقدم تضحيات كبيرة فى سبيل الصمود على عقيدتها فى الإمامة؛ لأنها كانت فى نظر الخلافة المعاصرة لها تشكل خطا عدائيا، و لو من الناحية الفكرية على الأقل، الأمر الذى أدّى إلى قيام السلطات و قتئذ و باستمرار تقريبا حملات من التصفية و التعذيب، فقتل من قتل، و سجن من سجن، و مات فى ظلمات المعتقلات المئات، و هذا يعنى أنّ الاعتقاد بإمامة أئمة أهل البيت كان يكلّفهم غاليا[۵۷]، و لم يكن له من الاغراءات سوى ما يحسّ به المعتقد أو يفترضه من التقرب إلى اللّه تعالى و الزلفى عنده.

ه- إنّ الأئمة الذين دانت هذه القواعد لهم بالإمامة لم يكونوا معزولين عنها، و لا متقوقعين فى بروج عالية شأن السلاطين مع شعوبهم، و لم يكونوا يحتجبون عنهم إلّا أن تحجبهم السلطة الحاكمة بسجن أو نفى، و هذا ما نعرفه من خلال العدد الكبير من الرواة و المحدثين عن كلّ واحد من الأئمة الأحد عشر، و من خلال

---

[۵۵] (۱) راجع: المجالس السنيّة، السيد الأمين العاملى: ۲/ ۴۶۸، و هذه قضية مشهورة تناقلها الخاص و العام. و راجع: صحاح الأخبار، محمد سراج الدين الرفاعى: ۴۴، نقلا عن الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، أسد حيدر ۱: ۵۵، و قال ابن حجر فى الصواعق المحرقة: ۳۰۵« جعفر الصادق، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته فى جميع البلدان، و روى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد و ابن جريج و مالک و السفيانين و أبى حنيفة و شعبة و أيوب السختيانى ...».

[۵۶] (۲) كون الإمام أعلم أهل زمانه أمر متسالم عليه عند الإمامية، راجع: الباب الحادى عشر،-- العلّامة الحلى: ۴۴ هذا و قد عرّضوا لأكثر من إختبار صلوات اللّه و سلامه عليهم لإثبات هذا المدّعى، و نجحوا فيه.

راجع: الصواعق المحرقة لابن حجر: ۳۱۲، فقد نقل تفصيلا فى هذه المسألة عن مسائل يحيى بن أكثم للإمام الجواد عليه السّلام.

[۵۷] (۱) إن الإعتقاد بإمامة الأئمة كلّف أتباعهم غاليا، و هذا ثابت تاريخيا، و ليس إلى إنكاره من سبيل، و الشاهد يدل على الغائب أيضا. راجع: مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى.

ما نقل من المكاتبات التى كانت تحصل بين الإمام و معاصريه، و ما كان الإمام يقوم به من أسفار من ناحية، و ما كان يبثّه من وكلاء فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى من ناحيه اخرى، و ما كان قد اعتاده الشيعة من تفقّد أئمتهم و زيارتهم فى المدينة المنورة عند ما يؤمون الديار المقدسة من كلّ مكان لأداء فريضة الحج[۵۸]، كلّ ذلک يفرض تفاعلا مستمرا بدرجة واضحة بين الإمام و قواعده الممتدة فى أرجاء العالم الإسلامى بمختلف طبقاتها من العلماء و غيرهم.

و- إن الخلافة المعاصرة للأئمة عليهم السّلام كانت تنظر إليهم و إلى زعامتهم الروحية و الإمامية بوصفها مصدر خطر كبير على كيانها و مقدّراتها، و على هذا الأساس بذلت كل جهودها فى سبيل تفتيت هذه الزعامة، و تحملت فى سبيل ذلک كثيرا من السلبيات، و ظهرت أحيانا بمظاهر القسوة و الطغيان حينما اضطرها تأمين مواقعها إلى ذلک، و كانت حملات الاعتقال و المطاردة مستمرة للأئمة[۵۹]

ص:۵۱

أنفسهم على الرغم مما يخلّفه ذلک من شعور بالألم أو الاشمئزاز عند المسلمين و للناس الموالين على اختلاف درجاتهم.

إذا أخذنا هذه النقاط الست بعين الاعتبار، و هى حقائق تاريخية لا تقبل الشک، أمكن أن تخرج بنتيجة و هى: أنّ ظاهرة الإمامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية و لم تكن و هما من الأوهام؛ لأنّ الإمام الذى يبرز على المسرح و هو صغير فيعلن عن نفسه إماما روحيا و فكريا للمسلمين، و يدين له بالولاء و الإمامة كلّ ذلک التيار الواسع، لا بدّ أن يكون على قدر واضح و ملحوظ بل و كبير من العلم و المعرفة وسعة الافق و التمكن من الفقه و التفسير و العقائد؛ لأنه لو لم يكن كذلک لما أمكن أن تقتنع تلک القواعد الشعبية بإمامته، مع ما تقدم من أنّ الأئمة كانوا فى مواقع تتيح لقواعدهم التفاعل معهم و للأضواء المختلفة أن تسلّط على حياتهم و موازين شخصيتهم.

فهل ترى أنّ صبيّا يدعو إلى إمامة نفسه و ينصب منها علما للإسلام و هو على مرأى و مسمع جماهير قواعده الشعبية، فتؤمن به و تبذل فى سبيل ذلک الغالى من أمنها و حياتها بدون أن تكلّف نفسها اكتشاف حاله، و بدون أن تهزّها ظاهرة هذه الإمامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف و تقييم هذا الصبى الإمام؟[۶۰] و هب إن

---

[۵۸] (۱) و قد أوصى الأئمة بذلک أتباعهم كما هو لسان الروايات الكثيرة.

راجع: اصول الكافى: ۱/ ۳۹۲، كتاب الحجة- باب« إن الواجب على النّاس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم، و يعلمونه ولايتهم و مودتهم له».

[۵۹] (۲) راجع فى تاريخ الأئمة عليهم السّلام، و تعرّضهم للاضطهاد و المطاردة و السجن و القتل أحيانا.

أ- الفصول المهمة لابن الصباغ المالكى.

ب- مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى.

ج- الإرشاد للشيخ المفيد.

[۶۰] (۱) إشارة إلى الإمام المهدى عليه السّلام و من قبل إلى الإمام الجواد عليه السّلام مثلا.

الناس لم يتحركوا لاستطلاع المواقف، فهل يمكن أن تمرّ المسألة أياما و شهورا بل أعواما دون أن تتكشف الحقيقة على الرغم من التفاعل الطبيعى المستمر بين الصبى الإمام و سائر الناس؟ و هل من المعقول أن يكون صبيّا فى فكره و علمه حقّا ثمّ لا يبدو ذلک من خلال هذا التفاعل الطويل؟

و إذا افترضنا أنّ القواعد الشعبية لإمامة أهل البيت لم يتح لها أن تكتشف واقع الأمر، فلماذا سكتت الخلافة القائمة و لم تعمل لكشف الحقيقة إذا كانت فى صالحها؟ و ما كان أيسر ذلک على السلطة القائمة لو كان الإمام الصبى صبيا فى فكره و ثقافته كما هو المعهود فى الصبيان، و ما كان أنجحه من اسلوب أن تقدم هذا الصبى إلى شيعته و غير شيعته على حقيقته، و تبرهن على عدم كفاءته للإمامة و الزعامة الروحية و الفكرية، فلئن كان من الصعب الإقناع بعدم كفاءة شخص فى الأربعين أو الخمسين قد أحاط بقدر كبير من ثقافة عصره لتسلّم الإمامة، فليس هناک صعوبة فى الإقناع بعدم كفاءة صبى اعتيادى مهما كان ذكيا و فطنا للإمامة بمعناها الذى يعرفه الشيعة الإماميون[۶۱]، و كان هذا أسهل و أيسر من الطرق

المعقدة و أساليب القمع و المجازفة التى انتهجتها السلطات و قتئذ.

إنّ التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة عن اللعب بهذه الورقة[۶۲]، هو أنها أدركت أن الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقية و ليست شيئا مصطنعا.

و الحقيقة أنها أدركت ذلک بالفعل بعد أن حاولت أن تلعب بتلک الورقة فلم تستطع، و التاريخ يحدثنا عن محاولات من هذا القبيل و فشلها[۶۳]، بينما لم يحدثنا إطلاقا عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة أو واجه فيه الصبىّ الإمام إحراجا يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه.

و هذا معنى ما قلناه من أن الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية فى حياة أهل البيت عليهم السّلام و ليست مجرد افتراض، كما أنّ هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها و حالاتها المماثلة فى تراث السماء، الذى امتد عبر الرسالات و الزعامات الربّانية.

---

[۶۱] (۱) أى على أنه يجب أن يكون أفضل الناس، و أعلم الناس كما هو معتقد الإمامية الاثنى عشرية.

راجع: حق اليقين فى معرفة اصول الدين للسيد عبد اللّه شبر المتوفّى سنة(۱۲۴۲ ه):

۱/ ۱۴۱، المقصد الثالث.

[۶۲] (۱) يقصد تقديم الإمام الصبى للاختبار أمام الملأ لإظهار حقيقة الأمر.

[۶۳] (۲) قد فعل المأمون ذلک، و انكشف لدى الخاص من العلماء مدى ما يمتلكه الإمام الجواد عليه السّلام من الفقه و العلم. راجع الصواعق المحرقة لابن حجر: ۳۱۲.

و يكفى مثالا لظاهرة الإمامة المبكرة فى التراث الربانى لأهل البيت عليهم السّلام: يحيى عليه السّلام، إذ قال اللّه سبحانه و تعالى: يا يَحْيى خُذِ

ص:۵۴

الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[۶۴].

و متى ثبت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية و متواجدة فعلا فى حياة أهل البيت، لم يعد هناك اعتراض فيما يخصّ إمامة المهدى عليه السّلام و خلافته لأبيه و هو صغير[۶۵]»[۶۶].

ص:۵۵

الخصوصية الثالثة:

الغيبة المستلزمة لعمر مفتوح مع انفتاح الزمن

من مقتضيات و خصائص المفهوم المهدوى عند أهل البيت عليهم السّلام، هو الاعتقاد بغيبة الإمام عليه السّلام عن الأنظار، و استمراره على ذلک إلى حين يأذن اللّه سبحانه و تعالى له بالظهور، و إثبات هذه الخصوصية ننجزه فى مرحلتين:-

الاولى: مرحلة إثبات إمكانية العمر الطويل الى آخر الزمان

إن المشكلة الأساسية التى تواجه المفهوم المهدوى عند أهل البيت عليهم السّلام، تتمثل فى ما يستلزمه هذا المفهوم من عمر مفتوح، مع انفتاح الزمن و ممتد بامتداده، و قد عولجت هذه المشكلة بإجابات كثيرة نورد هنا إجابة السيد الشهيد الصدر عليها، فقد كتب يقول:

«هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قرونا كثيرة كما هو المفترض فى هذا القائد المنتظر لتغيير العالم، الذى يبلغ عمره الشريف فعلا أكثر من ألف و مائة و أربعين سنة، أى حوالى (۱۴) مرة بقدر عمر الإنسان الاعتيادى الذى يمر بكل المراحل الاعتيادية من الطفولة إلى الشيخوخة؟

كلمة الإمكان هنا تعنى أحد ثلاثة معان: الإمكان العملى،

---

[۶۴] (۱) مريم: ۱۲.

[۶۵] (۲) و قد شاهد خاصة الشيعة الإمام المهدى و اتصلوا به، و أخذوا عنه، كما حصل عن طريق السفراء الأربعة، راجع: تبصرة الولى فيمن رأى القائم المهدى، البحرانى، الإرشاد، الشيخ المفيد: ۳۴۵، و راجع تفصيلا وافيا فى الدفاع عن الكافى، السيد ثامر العميدى: ۱/ ۵۳۵ و ما بعدها.

[۶۶] (۳) بحث حول المهدى، للسيد الشهيد قدّس سرّه: ۹۳- ۹۹ بتحقيق الدكتور عبد الجبارة شرارة.

ص:۵۶

و الإمكان العلمى، و الإمكان المنطقى أو الفلسفى.

و أقصد بالإمكان العملى: أن يكون الشىء ممكنا على نحو يتاح لى أو لک، أو لإنسان آخر فعلا أن يحققه، فالسفر عبر المحيط، و الوصول إلى قاع البحر، و الصعود إلى القمر، أشياء أصبح لها إمكان عملى فعلا. فهناک من يمارس هذه الأشياء فعلا بشكل و آخر.

و أقصد بالإمكان العلمى: أن هناک أشياء قد لا يكون بالإمكان عمليا لى أو لک، أن نمارسها فعلا بوسائل المدنية المعاصرة، و لكن لا يوجد لدى العلم و لا تشير اتجاهاته المتحركة إلى ما يبرر رفض إمكان هذه الأشياء و وقوعها وفقا لظروف و وسائل خاصة، فصعود الإنسان إلى كوكب الزهرة لا يوجد فى العلم ما يرفض وقوعه، بل إن اتجاهاته القائمة فعلا تشير إلى إمكان ذلک، و إن لم يكن الصعود فعلا ميسورا لى أو لک؛ لأن الفارق بين الصعود إلى الزهرة و الصعود إلى القمر ليس إلّا فارق درجة، و لا يمثل الصعود إلى الزهرة إلّا مرحلة تذليل الصعاب الإضافية التى تنشأ من كون المسافة أبعد، فالصعود إلى الزهرة ممكن علميا و إن لم يكن ممكنا عمليا فعلا[۶۷]. و على العكس من ذلک الصعود إلى قرص الشمس

ص:۵۷

فى كبد السماء فإنه غير ممكن علميا، بمعنى أن العلم لا أمل له فى وقوع ذلک، إذ لا يتصور علميا و تجريبيا إمكانية صنع ذلک الدرع الواقى من الاحتراق بحرارة الشمس، التى تمثل اتونا هائلا مستعرا بأعلى درجة تخطر على بال إنسان.

و أقصد بالإمكان المنطقى أو الفلسفى: أن لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قبلية- أى سابقة على التجربة- ما يبرر رفض الشىء و الحكم باستحالته.

فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوى و بدون كسر إلى نصفين ليس له إمكان منطقى؛ لأن العقل يدرک- قبل أن يمارس أى تجربة- أن الثلاثة عدد فردى و ليس زوجا، فلا يمكن أن تنقسم بالتساوى؛ لأن انقسامها بالتساوى يعنى كونها زوجا، فتكون فردا و زوجا فى وقت واحد، و هذا تناقض، و التناقض مستحيل منطقيا. و لكن دخول الإنسان فى النار دون أن يحترق، و صعوده للشمس دون أن تحرقه الشمس بحرارتها ليس مستحيلا من الناحية المنطقية، إذ لا تناقض فى افتراض أن الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة، و إنما هو

ص:۵۸

مخالف للتجربة التى أثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى أن يتساوى الجسمان فى الحرارة.

---

[۶۷] (۱) الكلام فى وقته دقيق علميا، فهو يقول: إنه ممكن علميا، و لكنه لم يكن قد تحقق فعلا،- و الواقع أن كثيرا من الإنجازات فى عالم الفضاء، و تسيير المركبات الفضائية إلى كواكب و توابع الأرض و غيرها قد أصبحت حقائق فى أواخر القرن العشرين.

و هكذا نعرف أن الإمكان المنطقى أوسع دائرة من الإمكان العلمى، و هذا أوسع دائرة من الإمكان العملى.

و لا شک فى أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقيا؛ لأن ذلک ليس مستحيلا من وجهة نظر عقلية تجريدية، و لا يوجد فى افتراض من هذا القبيل أى تناقض؛ لأن الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع، و لا نقاش فى ذلک.

كما لا شک أيضا و لا نقاش فى أن هذا العمر الطويل ليس ممكنا إمكانا عمليا، على نحو الإمكانات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود إلى القمر، ذلک لأن العلم بوسائله و أدواته الحاضرة فعلا، و المتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة، لا يستطيع أن يمدد عمر الإنسان مئات السنين، و لهذا نجد أن أكثر الناس حرصا على الحياة و قدرة على تسخير إمكانات العلم، لا يتاح لهم من العمر إلّا بقدر ما هو مألوف.

و أما الإمكان العلمى فلا يوجد علميا اليوم ما يبرر رفضه من

ص:۵۹

الناحية النظرية[۶۸]. و هذا بحث يتصل فى الحقيقة بنوعية التفسير الفسلجى لظاهرة الشيخوخة و الهرم لدى الإنسان، فهل تعبر هذه الظاهرة عن قانون طبيعى يفرض على أنسجة جسم الإنسان و خلاياه- بعد أن تبلغ قمة نموها- أن تتصلب بالتدريج و تصبح أقل كفاءة للاستمرار فى العمل، إلى أن تتعطل فى لحظة معينة، حتى لو عزلناها عن تأثير أى عامل خارجى؟ أو أن هذا التصلب و هذا التناقص فى كفاءة الانسجة و الخلايا الجسمية للقيام بأدوارها الفسيولوجية، نتيجة صراع مع عوامل خارجية كالميكروبات أو التسمم الذى يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف أو أى عامل آخر؟

و هذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه، و هو جاد فى الإجابة عنه، و لا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمى.

فإذا أخذنا بوجهة النظر العلمية التى تتجه إلى تفسير الشيخوخة و الضعف الهرمى، بوصفه نتيجة صراع و احتكاک مع مؤثرات خارجية معينة، فهذا يعنى أن بالإمكان نظريا، إذا عزلت الأنسجة

ص:۶۰

التى يتكون منها جسم الإنسان عن تلک المؤثرات المعينة، أن تمتد بها الحياة و تتجاوز ظاهرة الشيخوخة و تتغلب عليها نهائيا.

و إذا أخذنا بوجهة النظر الاخرى التى تميل إلى افتراض الشيخوخة قانونا طبيعيا للخلايا و الأنسجة الحية نفسها، بمعنى أنها تحمل فى أحشائها بذرة فنائها المحتوم، مرورا بمرحلة الهرم و الشيخوخة و انتهاء بالموت.

---

[۶۸] (۱) نعم، لا يوجد مبرر علمى واحد يرفض هذه النظرية، بل إن علماء الطب منشغلون فعلا بمحاولات حثيثة لإطالة عمر الإنسان، و أن هناک عشرات التجارب التى تتم فى هذا المجال، و ذلک وحده ينهض دليلا قويا على الإمكان النظرى أو العلمى.

أقول: إذا أخذنا بوجهة النظر هذه، فليس معنى هذا عدم افتراض أى مرونة فى هذا القانون الطبيعى، بل هو- على افتراض وجوده- قانون مرن؛ لأننا نجد فى حياتنا الاعتيادية؛ و لأن العلماء يشاهدون فى مختبراتهم العلمية، أن الشيخوخة كظاهرة فسيولوجية لا زمنية، قد تأتى مبكرة، و قد تتأخر و لا تظهر إلّا فى فترة متأخرة، حتى أن الرجل قد يكون طاعنا فى السن و لكنه يملك أعضاء لينة، و لا تبدو عليه اعراض الشيخوخة كما نص على ذلك الأطباء[٦٩]. بل إن العلماء استطاعوا عمليا أن يستفيدوا من مرونة ذلك القانون الطبيعى المفترض، فأطالوا عمر بعض

ص:٦١

الحيوانات مئات المرات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية؛ و ذلك بخلق ظروف و عوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة.

و بهذا يثبت علميا أن تأجيل هذا القانون بخلق ظروف و عوامل معينة أمر ممكن علميا، و لئن لم يتح للعلم أن يمارس فعلا هذا التأجيل بالنسبة إلى كائن معقد معين كالإنسان، فليس ذلك إلّا لفارق درجة بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الإنسان، و صعوبتها بالنسبة إلى أحياء اخرى. و هذا يعنى أن العلم من الناحية النظرية و بقدر ما تشير إليه اتجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبدا ما يرفض إمكانية إطالة عمر الإنسان، سواء فسرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع و احتكاك مع مؤثرات خارجية أو نتاج قانون طبيعى للخليّة الحيّة نفسها يسير بها نحو الفناء.

و يتلخص من ذلك: أن طول عمر الإنسان و بقاءه قرونا متعددة أمر ممكن منطقيا و ممكن علميا، و لكنه لا يزال غير ممكن عمليا، إلّا أن اتجاه العلم سائر فى طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل.

و على هذا الضوء نتناول عمر المهدى عليه السّلام و ما احيط به من استفهام أو استغراب، و نلاحظ:

إنه بعد أن ثبت إمكان هذا العمر الطويل منطقيا و علميا، و ثبت

ص:٦٢

أن العلم سائر فى طريق تحويل الامكان النظرى إلى إمكان عملى تدريجا، لا يبقى للاستغراب محتوى إلّا استبعاد أن يسبق المهدى العلم نفسه، فيتحول الامكان النظرى الى إمكان عملى فى شخصه قبل أن يصل العلم فى تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل، فهو نظير من يسبق العلم فى اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

و إذا كانت المسألة هى أنه كيف سبق الإسلام- الذى صمم عمر هذا القائد المنتظر- حركة العلم فى مجال هذا التحويل؟

---

[٦٩] (١) يؤكد الأطباء و الدراسات الطبية على هذه الملاحظة، و أن لديهم مشاهدات كثيرة فى هذا المجال، و لعل هذا هو الذى دفعهم إلى إجراء محاولات و تجارب لإطالة العمر الطبيعى للإنسان، و كالمعتاد كان مسرح التجربة فى البداية هى الحيوانات لميسورية ذلك، و عدم وجود محاذير اخرى تمنع إجراء مثل تلك التجارب على الإنسان.

فالجواب: إنه ليس ذلک هو المجال الوحيد الذى سبق فيه الإسلام حركة العلم.

أو ليست الشريعة الإسلامية ككل قد سبقت حركة العلم و التطور الطبيعى للفكر الإنسانى قرونا عديدة؟[٧٠]

أو لم تناد بشعارات طرحت خططا للتطبيق لم ينضج الإنسان

ص:۶۳

للتوصل إليها فى حركته المستقلة إلّا بعد مئات السنين؟

أو لم تأت بتشريعات فى غاية الحكمة، لم يستطع الإنسان أن يدرک أسرارها و وجه الحكمة فيها إلّا قبل برهة و جيزة من الزمن؟

أو لم تكشف رسالة السماء أسرارا من الكون لم تكن تخطر على بال إنسان، ثم جاء العلم ليثبتها و يدعمها؟

فإذا كنا نؤمن بهذا كله، فلماذا نستكثر على مرسل هذه الرسالة- سبحانه و تعالى- أن يسبق العلم فى تصميم عمر المهدى؟[٧١] و أنا هنا لم أتكلم إلّا عن مظاهر السبق التى نستطيع أن نحسّها نحن بصورة مباشرة، و يمكن أن نضيف إلى ذلک مظاهر السبق التى تحدّثنا بها رسالة السماء نفسها.

و مثال ذلک: أنها تخبرنا بأن النبى صلى اللّه عليه و آله قد اسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، و هذا الإسراء[٧٢] إذا أردنا ان

ص:۶۴

---

[٧٠] (١) هذه التساؤلات التى يثيرها السيد الشهيد رضى اللّه عنه تهدف إلى ترسيخ حقيقة مهمة، هى أن الرسول الاعظم صلى اللّه عليه و آله عندما بشر(بالمهدى)، و هو حالة غير اعتيادية فى سياق البشرية، تنبئ فى جملتها عن تسجيل سبق فى الامكانية العلمية، بعد تأكيد الامكانية العلمية، أى لبقاء الإنسان مدة أطول بكثير من المعتاد، فإن مثل هذا السبق فى التنبيه على حقائق فى هذا الوجود كان قد سجله القرآن و الحديث الشريف فى موارد كثيرة جدا فى مسائل الطبيعة و الكون و الحياة. راجع: القرآن و العلم الحديث، الدكتور عبد الرزاق نوفل.

[٧١] (١) إشارة إلى أن هذا من قبيل الاعجاز أيضا، و هو افاضة ربانية خاصة، و هذا أمر لا يسع المسلم انكاره، بعد أن أخبرت بامثاله الكتب السماوية، و بالأخص القرآن، كالذى ورد فى شأن عمر النبى نوح عليه السّلام، و كذا ما أخبر به القرآن من المغيبات الاخرى، على أن كثيرا من أهل السنة و من المتصوفة و أهل العرفان يؤمنون بوقوع الكرامات و ما يشبه المعجزات للأولياء و الصلحاء و المقربين من حضرة المولى تعالى. راجع: التصوف و الكرامات، الشيخ محمد جواد مغنية. و راجع التاج الجامع للاصول: ۵/ ۲۲۸، كتاب الزهد و الرقائق.

[٧٢] (٢) إشارة إلى الآية المباركة:\i سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ...\E الاسراء: ١.

نفهمه فی إطار القوانین الطبیعیة، فهو یعبر عن الاستفادة من القوانین الطبیعیة بشکل لم یتح للعلم أن یحققه[۷۳] إلّا بعد مئات السنین، فنفس الخبرة الربانیة التی أتاحت للرسول صلی اللّه علیه و آله التحرک السریع قبل أن یتاح للعلم تحقیق ذلک، أتاحت لآخر خلفائه المنصوصین العمر المدید، قبل أن یتاح للعلم تحقیق ذلک.

نعم، هذا العمر المدید الذی منحه اللّه تعالی للمنقذ المنتظر یبدو غریبا فی حدود المألوف حتی الیوم فی حیاة الناس، و فی ما أنجز فعلا من تجارب العلماء.

و لکن أو لیس الدور التغییری الحاسم الذی اعد له هذا المنقذ غریبا فی حدود المألوف فی حیاة الناس، و ما مرت بهم من تطورات التاریخ؟

أو لیس قد انیط به تغییر العالم، و إعادة بنائه الحضاری من جدید علی أساس الحق و العدل؟

فلماذا نستغرب إذا اتّسم التحضیر لهذا الدور الکبیر ببعض الظواهر الغریبة و الخارجة عن المألوف کطول عمر المنقذ

المنتظر؟ فإن غرابة هذه الظواهر و خروجها عن المألوف مهما کان شدیدا، لا یفوق بحال غرابة نفس الدور العظیم الذی یجب علی الیوم الموعود إنجازه. فإذا کنا نستسیغ ذلک الدور الفرید[۷۴] تاریخیا علی الرغم من أنه لا یوجد دور مناظر له فی تاریخ الإنسان، فلماذا لا نستسیغ ذلک العمر المدید الذی لا نجد عمرا مناظرا له فی حیاتنا المألوفة؟ و لا أدری! هل هی صدفة أن یقوم شخصان فقط بتفریغ الحضارة الإنسانیة من محتواها الفاسد و بنائها من جدید، فیکون لکل منهما عمر مدید یزید علی أعمارنا الاعتیادیة أضعافا مضاعفة؟

أحدهما: مارس دوره فی ماضی البشریة و هو النبی نوح، الذی نص القرآن الکریم[۷۵] علی أنه مکث فی قومه ألف سنة إلّا خمسین عاما، و قدر له من خلال الطوفان أن یبنی العالم من جدید.

و الآخر: یمارس دوره فی مستقبل البشریة و هو المهدی الذی

---

[۷۳] (۱) إشارة إلی تصمیم المرکبات الفضائیة، و رکوب الفضاء و التوغل إلی مسافات بعیدة عن أرضنا، و قطعها فی ساعات أو أیام معدودة، و قد أضحت هذه حقائق فی حیاتنا المعاصرة فی أواخر القرن العشرین.

[۷۴] (۱) إشارة إلی ما اعد للإمام المهدی المنتظر من دور و مهمة تغییریة علی مستوی الوجود الإنسانی برمته کما یشیر الحدیث- الصحیح:« یملأ الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا». و هذا الدور و هذه المهمة علیها الاجماع بین علماء الإسلام، و الاختلاف حصل فی امور فرعیة. و من هنا کان التساؤل الذی أثاره السید الشهید رضی اللّه عنه له مبرر منطقی قوی.

[۷۵] (۲) فی الآیة المبارکة:\i فَلَبِثَ فِیهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِینَ عاماً\E العنکبوت: ۱۴.

مکث فی قومه حتی الآن أکثر من ألف عام و سیقدر له فی الیوم الموعود أن یبنی العالم من جدید.

فلماذا نقبل نوح الذی ناهز الف عام علی أقل تقدیر و لا نقبل المهدی؟[۷۶]

و قد عرفنا حتی الآن أن العمر الطویل ممکن علمیا، و لکن لنفترض أنه غیر ممکن علمیا، و أن قانون الشیخوخة و الهرم قانون صارم لا یمکن للبشریة الیوم، و لا علی خطها الطویل أن تتغلب

علیه، و تغیر من ظروفه و شروطه، فماذا یعنی ذلک؟ إنه یعنی أن إطالة عمر الإنسان- کنوح أو کالمهدی- قرونا متعددة، هی علی خلاف القوانین الطبیعیة التی أثبتها العلم بوسائل التجربة و الاستقراء الحدیثة، و بذلک تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانونا طبیعیا فی حالة معینة للحفاظ علی حیاة الشخص الذی انیط به الحفاظ علی رسالة السماء، و لیست هذه المعجزة فریدة من نوعها، أو غریبة علی عقیدة المسلم المستمدة من نص القرآن و السنة[۷۷]، فلیس قانون الشیخوخة و الهرم أشد صرامة من قانون انتقال الحرارة من الجسم الأکثر حرارة إلی الجسم الأقل حرارة حتی یتساویا، و قد عطل هذا القانون لحمایة حیاة إبراهیم علیه السّلام حین کان الاسلوب الوحید للحفاظ علیه تعطیل ذلک القانون. فقیل للنار حین القی فیها إبراهیم قُلْنا یا نارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلاماً عَلی إِبْراهِیمَ[۷۸] فخرج منها کما دخل سلیما لم یصبه أذی، إلی کثیر من القوانین الطبیعیة التی عطلت لحمایة أشخاص من الأنبیاء و حجج اللّه علی الأرض،

---

[۷۶] (۱) السؤال موجه إلی المسلمین المؤمنین بالقرآن الکریم و بالحدیث النبوی الشریف، و قد روی علماء السنة لغیر نوح ما هو أکثر من ذلک. راجع تهذیب الاسماء و اللغات، النووی:

۱/ ۱۷۶، و لا یصح أن یشکل أحد بأن ذاک أخبر به القرآن فالنص قطعی الثبوت، و هو یتعلق بالنبی المرسل نوح علیه السّلام، أما هنا فلیس لدینا نص قطعی، و لا الأمر متعلق بنبی.

و الجواب: إن المهمة أولا واحدة، و هی تغییر الظلم و الفساد، و أن الوظیفة کما أوکلت إلی النبی صلی اللّه علیه و آله، فقد أوکلت هنا إلی من اختاره اللّه تعالی أیضا کما هو لسان الروایات الصحیحة. قال الرسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله:« لو لم یبق من الدنیا إلّا یوم لطوّل اللّه ذلک الیوم حتی یبعث رجلا من أهل بیتی یملأ الأرض قسطا و عدلا ...» التاج الجامع للاصول:

۵/ ۳۴۳.

و أما من جهة قطعیة النص، فأحادیث المهدی بلغت حد التواتر، و هو موجب للقطع و العلم، فلا فرق فی المقامین. راجع: التاج الجامع للاصول: ۵/ ۳۴۱ و ۳۶۰ فقد نقل التواتر عن الشوکانی، و انتهی المحققون من علماء الفریقین إلی القول بأن من کفر بالمهدی فقد کفر بالرسول محمد صلی اللّه علیه و آله و لیس ذلک إلّا بلحاظ أنه ثبت بالتواتر، و أنه من ضرورات الدین، و المنکر لذلک کافر اجماعا. و راجع: الإشاعة لا شراط الساعة، البرزنجی فی بحثه حول المهدی. و قد نقلنا حکایة التواتر فی المقدمة أیضا.

[۷۷] (۱) أی أن الأمر یصبح من قبیل المعجز، و هو ما نطق به القرآن، و جاء فی صحیح السنة المطهرة، و الإعجاز حقیقة رافقت دعوة الأنبیاء، و ادعاء سفارتهم عن الحضرة الإلهیة، و هو ما لا یسع المسلم إنکاره أو الشک فیه، بل إن غیر المسلم یشارک المسلم فی الاعتقاد بالمعجزات.

[۷۸] (۲) الأنبیاء: ۶۹.

ص:۶۸

ففلق البحر لموسى علیه السّلام[۷۹]، و شبه للرومان أنهم قبضوا على عیسى[۸۰] و لم یکونوا قد قبضوا علیه، و خرج النبی محمد صلى اللّه علیه و آله من داره و هی محفوفة بحشود قریش التی ظلت ساعات تتربص به لتهجم علیه، فستره اللّه تعالى عن عیونهم و هو یمشی بینهم[۸۱]. کل هذه الحالات تمثل قوانین طبیعیة عطلت لحمایة شخص، کانت الحکمة الربانیة تقتضی الحفاظ على حیاته، فلیکن قانون الشیخوخة و الهرم من تلک القوانین.

و قد یمکن أن نخرج من ذلک بمفهوم عام و هو أنه کلما توقف الحفاظ على حیاة حجة للّه فی الأرض على تعطیل قانون طبیعی، و کانت إدامة حیاة ذلک الشخص ضروریة لانجاز مهمته التی أعد لها، تدخلت العنایة الربانیة فی تعطیل ذلک القانون لانجاز ذلک، و على العکس إذا کان الشخص قد انتهت مهمته التی اعد لها ربانیا فإنه سیلقی حتفه و یموت أو یستشهد وفقا لما تقرره القوانین الطبیعیة.

و نواجه عادة بمناسبة هذا المفهوم العام السؤال التالی: کیف

ص:۶۹

یمکن أن یتعطل القانون[۸۲]؟ و کیف تنفصم العلاقة الضروریة التی تقوم بین الظواهر الطبیعیة؟ و هل هذه إلّا مناقضة للعلم الذی اکتشف ذلک القانون الطبیعی، و حدد هذه العلاقة الضروریة على اسس تجریبیة و استقرائیة؟!

و الجواب: أن العلم نفسه قد أجاب عن هذا السؤال بالتنازل عن فکرة الضرورة فی القانون الطبیعی، و توضیح ذلک: أن القوانین الطبیعیة یکتشفها العلم على أساس التجربة و الملاحظة المنتظمة، فحین یطرد وقوع ظاهرة طبیعیة عقیب ظاهرة اخرى یستدل بهذا الاطّراد على قانون طبیعی، و هو أنه کلما وجدت الظاهرة الاولى وجدت الظاهرة الثانیة عقیبها، غیر أن العلم لا یفترض فی هذا القانون الطبیعی علاقة ضروریة بین الظاهرتین نابعة من صمیم هذه الظاهرة و ذاتها، و صمیم تلک و ذاتها؛ لأن الضرورة حالة غیبیة، لا یمکن للتجربة و وسائل البحث الاستقرائی و العلمی اثباتها، و لهذا فإن منطق العلم الحدیث یؤکد أن القانون

ص:۷۰

---

[۷۹] (۱) إشارة إلى قوله تعالى:\i فَأَوْحَیْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَکانَ کُلُّ فِرْقٍ کَالطَّوْدِ الْعَظِیمِ\E الشعراء: ۶۳.

[۸۰] (۲) إشارة إلى قوله تعالى:\i وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ...\E النساء: ۱۵۷.

[۸۱] (۳) راجع: سیرة ابن هشام: ۲/ ۴۸۳، فقد نقل هذه الحادثة و هی مجمع علیها.

[۸۲] (۱) قد یقال: إن القانون بصفته قانونا لا بد أن یطرد، و لا یتصور التعطیل و الانخرام، و قد لاحظ بعضهم أن الانخرام إنما هو بقانون آخر، کما هو الأمر بالنسبة إلى قانون الجاذبیة، الذی یستلزم جذب الاشیاء إلى المرکز، و مع ذلک فإن الماء یصعد بعملیة الامتصاص فی النباتات من الجذر إلى الاعلى بواسطة الشعیرات، و هذا بحسب قانون آخر هو(الخاصیة الشعریة). راجع: القرآن محاولة لفهم عصری/ الدکتور مصطفى محمود.

الطبیعی- کما یعرفه العلم- لا یتحدث عن علاقة ضروریة، بل عن اقتران مستمر بین ظاهرتین[۸۳]، فإذا جاءت المعجزة و فصلت إحدی الظاهرتین عن الاخری فی قانون طبیعی لم یکن ذلک فصما لعلاقة ضروریة بین الظاهرتین.

و الحقیقة أن المعجزة بمفهومها الدینی، قد أصبحت فی ضوء المنطق العلمی الحدیث مفهومة بدرجة أکبر مما کانت علیه فی ظل وجهة النظر الکلاسیکیة إلی علاقات السببیة.

فقد کانت وجهة النظر القدیمة تفترض أن کل ظاهرتین اطّرد اقتران إحداهما بالاخری فالعلاقة بینهما علاقة ضرورة، و الضرورة تعنی أن من المستحیل أن تنفصل إحدی الظاهرتین عن الاخری، و لکن هذه العلاقة تحولت فی منطق العلم الحدیث إلی قانون الاقتران أو التتابع المطرد[۸۴] بین الظاهرتین دون افتراض تلک الضرورة الغیبیة.

و بهذا تصبح المعجزة حالة استثنائیة لهذا الاطّراد فی الاقتران أو التتابع دون أن تصطدم بضرورة أو تؤدی إلی استحالة.

و أما علی ضوء الاسس المنطقیة للاستقراء[۸۵] فنحن نتفق مع

ص:۷۱

وجهة النظر العلمیة الحدیثة، فی أن الاستقراء لا یبرهن علی علاقة الضرورة بین الظاهرتین، و لکنا نری أنه یدل علی وجود تفسیر مشترک لاطّراد التقارن أو التعاقب بین الظاهرتین باستمرار، و هذا التفسیر المشترک کما یمکن صیاغته علی أساس افتراض الضرورة الذاتیة، کذلک یمکن صیاغته علی أساس افتراض حکمة دعت منظم الکون إلی ربط ظواهر معینة بظواهر اخری باستمرار، و هذه الحکمة نفسها تدعو أحیانا إلی الاستثناء فتحدث المعجزة[۸۶].

و هکذا یتّضح بنحو علمی منطقی مبرهن أن العمر الطویل أمر ممکن، و لا یلزم منه محذور علمی و لا فلسفی. و بهذا تنتهی المرحلة الاولی من البحث فی خصوصیة الغیبة.

الثانیة- مرحلة إثبات تحقق ذلک فعلا فی الإمام المهدی علیه السّلام

و البحث فی هذه المرحلة یتم بطریقین: ۱- عقائدی.

۲- تاریخی:

---

[۸۳] (۱) و قد بسط الشهید الصدر القول فی هذه المسألة فی کتابه فلسفتنا فراجع: ۲۹۵ و ۲۹۹.

[۸۴] (۲) راجع فلسفتنا: ۲۸۲ و ما بعدها.

[۸۵] (۳) راجع بسط و شرح النظریة فی« الاسس المنطقیة للاستقراء» حیث توصل الإمام الشهید الصدر رضی اللّه عنه إلی اکتشاف مهم و خطیر علی صعید نظریة المعرفة بشکل عام.

[۸۶] (۱) بحث مستفاد من کتاب بحث حول المهدی للسید الشهید الصدر قدّس سرّه: ۶۵- ۸۰ بتحقیق و تعلیق الدکتور عبد الجبار شرارة.

۱- الطريق العقائدى

و يمكن تقريره بثلاثة بيانات:

أ- إن هذه الخصوصية من اللوازم الذاتية للمفهوم المهدوى عند

ص:۷۲

أهل البيت عليهم السّلام، فثبوت هذا المفهوم- بالنحو الذى مرّ آنفا- ثبوتا برهانيا قاطعا، و اتضاح بطلان ما سواه، يقودنا بنحو طبيعى إلى الاعتقاد بغيبة الإمام الثانى عشر عليه السّلام. فما دام الأئمة اثنى عشر فقط.

و أنهم معينين من قبل اللّه سبحانه و تعالى، و ليس للناس دور فى اختيارهم، فليس بإمكاننا إلّا أن نتصور استمرار حياة الإمام الثانى عشر، و مواكبته للمسيرة البشرية و ظهوره بعد ذلک فى الشوط الأخير منها، و من الطبيعى أن لا يتاح لإنسان يقدّر له مثل هذا الهدف، و تقدر له مثل هذه الحياة الطويلة، أن يعيشها بصورة ظاهرة، و لا بد له من أن يمارسها بنحو خفى غائب عن الأنظار، إلّا أن يفترض وفاة الإمام المهدى عليه السّلام فى الزمان الطبيعى لأمثاله، ثم عودته للحياة فى زمن الظهور، و لكن هذا الافتراض يلزم منه انقطاع الحجة فى الفترة الفاصلة من وفاته إلى ظهوره، و هو مخالف لحديث الثقلين الذى يدل على تلازم الكتاب و العترة، و عدم افتراقهما فى زمن من الأزمان حتى قيام الساعة و الورود على الحوض، كما يلزم منه الاعتقاد برجعة الإمام المهدى إلى الحياة بعد وفاته، و هو مما لا قائل به بين المسلمين.

ب- الروايات الدالة على اتصاف الإمام المهدى بالغيبة، و قد ذكرتها بعض مصادر أهل السنّة مثل: ينابيع المودّة، و فرائد السمطين.

ص:۷۳

ففى ينابيع المودّة: عن كتاب فرائد السمطين عن الباقر عن أبيه عن جده عن على عليهم السّلام، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله: «المهدى من ولدى تكون له غيبة إذا ظهر يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما»[۸۷].

و فيه عنه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضى اللّه عنهما-، قال:

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله: «أن عليا وصيى و من ولده القائم المنتظر المهدى الذى يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا، و الذى بعثنى بالحق بشيرا و نذيرا أن الثابتين على القول بإمامته فى زمان غيبته لأعزّ من الكبريت الأحمر» فقام إليه جابر بن عبد اللّه، فقال: يا رسول اللّه و للقائم من ولدک غيبة؟ قال: «أى و ربى ليمحص اللّه الذين آمنوا و يمحق الكافرين- ثم قال:- يا جابر إن هذا أمر من أمر اللّه و سر من سرّ اللّه فإياک و الشّک فإن الشّک فى أمر اللّه عزّ و جل كفر».

---

[۸۷] (۱) ينابيع المودّة: ۳/ ۲۹۶، الباب الثامن و السبعون.

و فيه فى الصفحة المذكورة عنه عن الحسن بن خالد، قال: قال على بن موسى الرضا- رضى اللّه عنهما-: «إن الرابع من ولدى ابن سيدة الإماء يطهّر اللّه به الأرض من كل جور و ظلم و هو الذى يشكّ الناس فى ولادته و هو صاحب الغيبة فإذا خرج أشرقت الأرض بنور ربّها»[88].

و فيه: عنه عن أحمد بن زياد عن دعبل بن على الخزاعى فى حديث و روده على الرضا و انشاده قصيدته التائية، إلى أن قال: «إن

ص:۷۴

الإمام بعدى ابنى محمد و بعد محمد ابنه على و بعد على ابنه الحسن و بعد الحسن ابنه الحجة القائم و هو المنتظر فى غيبته و المطاع فى ظهوره و يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما، و أما متى يقوم؟

فإخبار عن الوقت، فقد حدثنى أبى عن آبائه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله قال: مثله كمثل الساعة لا تأتيكم إلا بغتة»[89].

و فيه: عن غاية المرام عن فرائد السمطين عن جابر بن عبد اللّه رفعه: «المهدى من ولدى اسمه اسمى و كنيته كنيتى أشبه الناس بى خلقا و خلقا تكون له غيبة و حيرة تضل فيها الامم يقبل كالشهاب الثاقب يملأها عدلا و قسطا كما ملئت جورا و ظلما».

و فيه: عنه عن فرائد السمطين فى الصفحة المذكورة عن الباقر عن آبائه عن على بن أبى طالب- سلام اللّه عليهم- رفعه: «المهدى من ولدى تكون له غيبة و حيرة تضل فيها الامم- إلى أن قال- و يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما»[90].

و فيه: عن المناقب عن أبى جعفر محمد الباقر، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله: «طوبى لمن أدرک قائم أهل بيتى و هو يأتم به فى غيبته قبل قيامه و يتولى أولياءه و يعادى أعداءه ذلک من رفقائى و ذوى مودتى و أكرم امتى علىّ يوم القيامة».

ص:۷۵

و فيه: عنه عن أبى بصير عن الصادق جعفر بن محمد عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله: «المهدى من ولدى اسمه اسمى و كنيته كنيتى و هو أشبه الناس بى خلقا و خلقا، تكون له غيبة و حيرة فى الامم حتى يضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلک يقبل كالشهاب الثاقب فيملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا». و فيه: عنه مثل ذلک، غير أنه قال: «فعند ذلک يقبل كالشهاب الثاقب يأتى بذخيرة الأنبياء عليهم السّلام» ... الحديث[91].

---

[88] (۲) المصدر السابق: ۳/ ۲۹۷، الباب الثامن و السبعون.

[89] (۱) ينابيع المودّة: ۳/ ۳۱۰، الباب الثمانون.

[90] (۲) المصدر السابق: ۳/ ۳۸۶، الباب الرابع و التسعون.

[91] (۱) ينابيع المودّة: ۳/ ۳۹۷.

و فيه: (ص ۴۹۴) عنه عن جابر بن يزيد الجعفى قال: سمعت جابر بن عبد اللّه الأنصارى يقول: قال لى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله: «يا جابر إن أوصيائى و أئمة المسلمين من بعدى أولهم على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين ثم محمد بن على المعروف بالباقر ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرأه منى السلام، ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم على بن موسى ثم محمد بن على ثم على بن محمد ثم الحسن بن على ثم القائم اسمه اسمى و كنيته كنيتى ابن الحسن بن على ذلک الذى يفتح اللّه تبارک و تعالى على يديه مشارق الأرض و مغاربها، ذلک الذى يغيب عن أوليائه غيبة لا يثبت على القول بإمامته إلا من امتحن اللّه قلبه للإيمان».

ج- إن المهدى الموعود إن لم يكن إماما معصوما، و كان رجلا

ص:۷۶

عاديا من عامّة المسلمين، سوف لن يكون هناک تناسب بينه و بين ظهور المسيح عليه السّلام معه، و هو نبى من اولى العزم، ليؤيد المهدى و يدعو المسيحيين الى الإذعان بنبوّة النبى صلى اللّه عليه و آله، فلا بد و أن يكون المهدى الموعود إماما معصوما، و حيث إن الإمامة المعصومة ليست أمرا قابلا للادّعاء بل تحتاج الى تعيين سماوى و نص نبوى يكشف عنها، و لم يجر ذلک فى غير الأئمة الإثنى عشر عليهم السّلام حتى على مستوى الادّعاء فضلا عن الدليل و البرهان، و قد ثبتت وفاة الأئمة المتقدمين و دفنت أجسادهم فى أماكن معلومة، و بقى الإمام الثانى عشر لم تعلم له وفاة حتى الآن. فلا بد من الاعتقاد باستمرار حياة هذا الإمام من حين ولادته الى حين ظهوره فى آخر الزمان، ليكون مؤهلا لتأييد المسيح عليه السّلام له. يقول السيد سامى البدرى فى ذلک:

«فإن ظهور عيسى سوف يكون بحاجة إلى استيعاب علمى و قيادى من قبل المهدى الموعود، باعتباره يقوم شاهدا له و للرسالة التى يرفع شعارها و كتابها و تابعا له. و المهدى على التصور السنّى لن يكون قادرا على استيعاب المسيح، بل هو غير قادر على استيعاب طوائف المسلمين.

لن يكون قادرا على استيعاب المسيح، لأن المسيح نبى و رسول معصوم و مؤيد إلهيا بالمعجزات، و مثله لا يمكن أن

ص:۷۷

يستوعبه إنسان غير مؤيد بالمعجزات و العصمة و العلم التام.

و لن يكون قادرا على استيعاب الامة المسلمة بلا تأييد إلهى بالمعجزة و العصمة و العلم التام[۹۲]

۲- الطريق التأريخى

[۹۲] (۱) شبهات و ردود، الحلقة الرابعة: ۳۲.

و يمكن تقريره بثلاثة بيانات:

أ- إن التاريخ- و كما مرّ- قد شهد بولادة الإمام المهدى عليه السّلام و لم يشهد بوفاته، مما يدل على استمرار حياته، و حيث لا نتحسس وجوده، و لا نشخّص أحدا من الناس بعنوان أنه المهدى ابن الإمام الحسن العسكرى، فلا بد و أن تكون له حياة خفية غير ظاهرة للناس.

ب- إن التاريخ قد شهد بحصول مشاهدات عينية متكررة للإمام المهدى عليه السّلام فى زمان غيبته، و قد الّفت فى ذلک كتب مثل كتاب (تبصرة الولى فيمن رآى القائم المهدى) للسيد هاشم البحرانى، و ذكر الشيخ أبو طالب التجليل التبريزى فى كتابه[۹۳] ۲۶۶ شخصا ممن رأى الإمام المهدى فى غيبته الصغرى مع ذكر قصص أكثرهم، و خصص فصلا لمن رأى الإمام فى غيبته الكبرى، و ذكر

ص:۷۸

عشرين كتابا أورد أصحابها فيها القصص و الأخبار التأريخية فى ذلک، و ها نحن نذكر قصة أوردها السيد صدر الدين الصدر فى كتابه «المهدى» نقلا عن الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه «طبقات العرفاء» فى أحوال الشيخ حسن العراقى:

قال: «ترددت اليه مع سيدى أبى العباس الحريثى فقال: أتأذن لى أن أحكى لک حكايتى من مبتدأ أمرى إلى وقتى هذا كأنک كنت رفيقى من الصغر؟ فقلت له: نعم، فقال: كنت شابا من دمشق، و كنت صانعا، و كنا نجتمع يوما فى الجمعة على اللهو و اللعب و الخمر، فجاءنى التنبيه من اللّه تعالى يوما ألهذا خلقت؟! فتركت ما هم فيه و هربت منهم فتبعوا و رائى فلم يدركونى، فدخلت جامع بنى امية فوجدت شخصا يتكلم على الكرسى فى شأن المهدى عليه السّلام فاشتقت إلى لقائه، فصرت لا أسجد سجدة إلا و سألت اللّه تعالى أن يجمعنى معه، فبينما أنا ليلة بعد صلاة المغرب اصلى صلاة السنة و إذا بشخص جلس خلفى و مسح على كتفى، و قال لى: قد استجاب اللّه تعالى دعاءک يا ولدى! مالک أنا المهدى. فقلت: تذهب معى إلى الدار، فقال: نعم، فذهب معى و قال: اخل لى مكانا انفرد به فأخليت مكانا فأقام عندى سبعة أيام بلياليها»[۹۴].

ص:۷۹

و قال الشيخ على بن عيسى الأربلى فى كشف الغمة: «إن الناس ينقلون قصصا و أخبارا فى خوارق العادات للإمام المهدى عليه السّلام يطول شرحها، و أنا أذكر من ذلک قصتين قريب عهد بزمانى و حدثنى بها جماعة من ثقاة اخوانى.

الاولى: إنّه كان فى بلد الحلة بين الفرات و دجلة رجل اسمه إسماعيل بن الحسن، قال: اخوانى حكى لنا إسماعيل، أنه خرج على فخذى الأيسر توثة[۹۵] مقدار قبضة الإنسان فعجزت الأطباء عن علاجها فجاء بغداد و رآه أطباء الأفرنج، فقالوا: لا علاج لها،

---

[۹۳] (۲) من هو المهدى: ۴۶۰.

[۹۴] (۱) المهدى: ۱۴۹ صدر الدين الصدر.

[۹۵] (۱) التوثة: بثرة متقرحة.

فتوجه إلى سامراء وزار الإمامين على الهادى و الحسن العسكرى- رضى اللّه عنهما- و نزل السرداب و دعا اللّه تعالى تضرعا، و استغاث بالإمام المهدى عليه السّلام ثم مضى إلى دجلة فاغتسل ثم لبس ثوبه، فرأى أربعة فرسان خارجين من باب سور البلد و واحد شيخ بيده رمح و شاب آخر عليه فرجية ملونة، فصاحب الرمح يمين الطريق و الشابان يسار الطريق و الشاب صاحب الفرجية على الطريق، فقال له صاحب الفرجية: أنت تروح غدا إلى أهلک، فقال له: نعم، فقال صاحب الفرجية له: تقدم الىّ حتى أبصر ما يوجعک، فقدم إليه و مد يده إليه فعصر التوثة بيده فأوجعه ثم

ص:٨٠

استوى على سرجه، فقال الشيخ صاحب الرمح: أفلحت يا إسماعيل، هذا الإمام، ثم ذهبوا و هو يمشى معهم، فقال الإمام:

ارجع فقال: لا افارقک أبدا، فقال الإمام: المصلحة فى رجوعک، فقال: لا افارقک أبدا، فقال الشيخ: يا اسماعيل ما تستحى! يقول لک الإمام ارجع مرتين فتخالفه! فوقف و تقدم الإمام خطوات، ثم التفت إليه و قال: يا إسماعيل إذا وصلت إلى بغداد فلا بد أن يطلبک أبو جعفر، يعنى الخليفة المستنصر باللّه، فإذا حضرت عنده و أعطاک شيئا فلا تأخذه، و قل لولدنا الرضا ليكتب لک إلى على بن عوض فإننى اوصيه يعطيک الذى تريد، ثم سار مع أصحابه فلم يزل قائما يبصرهم حتى غابوا، ثم قعد على الأرض ساعة متأسفا محزونا و باكيا عن مفارقتهم، ثم جاء إلى سامراء فاجتمع القوم حوله، و قالوا: نرى وجهک متغيرا فما أصابک؟ فقال: هل عرفتم الفرسان الذين خرجوا من البلد و ساروا ساحل الشط، قالوا: هم الشرفاء أرباب الغنم، فقال لهم: بل هم الإمام و أصحابه، الشاب و صاحب الفرجية هو الإمام مس بيده المباركة مرضى، فقالوا: أرنيه، فكشف فخذه فلم يروا له أثرا فمزقوا ثيابه و أدخلوه فى خزانة و منعوا الناس عنه لكيلا يزدحموا عليه، ثم إن الناظر من طرف الخليفة جاء الخزانة و سأله عن هذا الخبر و عن اسمه و نسبه و وطنه و عن خروجه من بغداد أول هذا الاسبوع ثم ذهب عنه. فبات إسماعيل

ص:٨١

فى الخزانة و صلى الصبح و خرج مع الناس إلى أن بعد من سامراء فرجع القوم و وادعوا، فسار منفردا حتى وصل الى موضع، فرأى الناس مزدحمين على القنطرة العتيقة يسألون عمن ورد عليهم عن اسمه و نسبه و موضع مجيئه، فلما لا قوه عرفوه بالعلامات المذكورة فمزقوا ثيابه و أخذوها تبركا و كان الناظر كتب إلى بغداد و عرفهم الحال، و كان الوزير طلب السعيد رضى الدين ليعرفه صحة الخبر فخرج رضى الدين الذى هو كان من أصدقاء إسماعيل و كان ضيفه قبل خروجه إلى سامراء، فلما رآه رضى الدين و جماعة معه فنزلوا عن دابتهم و أراهم فخذه فلم يروا شيئا فغشى على رضى الدين ساعة، ثم أخذه بيده و أدخله على الوزير و هو يبكى و يقول: هذا أخى و أقرب الناس إلى قلبى، فسأله الوزير عن القصة فحكاها له فأحضر الأطباء الذين رأوا مرضه، و سألهم متى رأيتموه قالوا منذ عشرة أيام فكشف الوزير فخذ إسماعيل فليس فيها أثر، قالوا: هذا عمل المسيح عليه السّلام فقال الوزير: نحن نعرف من عملها ثم أحضره الوزير عند الخليفة فسأله عن القصة، فحكى له ما جرى فأعطى له الف دينار، فقال: ما أجسر أن آخذ منه ذرّة فقال الخليفة ممن تخاف؟ فقال: من الذى فعل بى هذا، قال لى: لا تأخذ من أبى جعفر شيئا. فبكى الخليفة، ثم قال على بن عيسى: كنت احكى هذه القصة لجماعة عندى و كان شمس الدين ولده حاضرا عندى لا أعرفه،

ص:٨٢

قال: أنا ابنه من صلبه فقلت: هل رأيت فخذ أبيک و هی مجروحة؟

قال: إنی کنت صبیا فی وقت جراحة فخذه، و لکن سمعت القصة من أبی و امی و أقربائی و جیرانی و رأیت فخذه بعد ما صلحت و لا أثر فیها و نبت فی موضعها شعر. و قال أیضا: سألت السید صفی الدین محمد بن محمد و نجم الدین حیدر ابن الأیسر، أخبرانی بصحة هذه القصة و إنهما رأیا إسماعیل فی مرضه و صحته، و حکی لی ولده أن أباه ذهب إلی سامراء بعد صحته أربعین مرة، طمعا أن یعود له الوقت الذی رآه.

الثانیة: حکی لی السید باقی بن عطوة العلوی الحسنی أن أباه عطوة لا یعترف بوجود الإمام محمد المهدی علیه السّلام و یقول: إذا جاء الإمام فیبرئنی من هذا المرض اصدق قولهم؟ و یکرر هذا القول فبینما نحن مجتمعون وقت العشاء الأخیرة، صاح أبونا فأتیناه سراعا فقال: إلحقوا الإمام فی هذه الساعة خرج من عندی، فخرجنا فلم نر أحدا، فجئنا إلیه و قال: انه دخل الیّ شخص و قال: یا عطوة فقلت: لبیک، قال: أنا المهدی قد جئت إلیک أن اشفی مرضک، ثم مد یده المبارکة و عصر و رکی و راح فصار مثل الغزال، قال علی بن عیسی: سألت هذه القصة من غیر ابنه فأقرّ بها»[۹۶].

ص:۸۳

و من هنا فقد آمن بعض الأعلام من أهل السنّة بحیاته و بقائه أو هو لازم کلامهم. و قد ذکر السید صدر الدین الصدر بعضهم فقال:

«منهم: الشیخ محیی الدین ابن العربی فی الفتوحات علی روایة الشیخ عبد الوهاب الشعرانی فی کتابه (الیواقیت و الجواهر) الذی تقدم عینا نقله عن کتاب (اسعاف الراغبین)، فإن کون المهدی بن الحسن العسکری بلا فصل کما هو صریح کلامه مع وفاة الإمام الحسن العسکری فی سنة مائتین و ستین لازمه حیاة المهدی و بقاؤه حتی یظهر أو أنه یموت ثم یحییه اللّه تعالی بقدرته. و لا أظن أن الشیخ محیی الدین یرضی بأن ینسب إلیه الاحتمال الأخیر.

و منهم: الشیخ عبد الوهاب الشعرانی فی کتابه (الیواقیت و الجواهر) علی ما فی اسعاف الراغبین حیث قال:

المهدی بن الإمام الحسن العسکری و مولده لیلة النصف من شعبان سنة خمس و خمسین و مائتین و هو باق إلی أن یجتمع بعیسی بن مریم، هکذا أخبرنی الشیخ حسن العراقی عن الإمام المهدی حین اجتمع به و وافقه علی ذلک سیدی علی الخواص»[۹۷].

و منهم: الشیخ أبو عبد اللّه محمد بن یوسف بن محمد الکنجی فی کتابه (البیان فی أخبار صاحب الزمان) علی ما نقله اسعاف

ص:۸۴

---

[۹۶] (۱) ینابیع المودّة: ۳/ ۳۱۵- ۳۱۷.

[۹۷] (۱) اسعاف الراغبین: ۱۵۷.

الراغبين، قال: و من الأدلة على أن المهدى حى باق بعد غيبته إلى الآن، و أنه لا امتناع فى بقائه: بقاء عيسى بن مريم، و الخضر، و إلياس من أولياء اللّه تعالى، و بقاء الأعور الدجال و ابليس اللعين من أعداء اللّه تعالى، و هؤلاء قد ثبت بقاؤهم بالكتاب و السنّة[۹۸].

و منهم: الشيخ العارف الفاضل الخواجه محمد بارسا فى كتابه (فصل الخطاب) على ما فى ينابيع المودّة بعد أن ذكر ولادة المهدى المنتظر، و أن اللّه تعالى آتاه الحكمة و فصل الخطاب فى سن الطفولة، كما منّ على يحيى و عيسى بذلك، قال: و طوّل اللّه تبارك و تعالى عمره كما طوّل عمر الخضر عليه السّلام[۹۹].

و منهم: الشيخ صدر الدين القونوى فى بعض وصاياه لتلامذته عند موته على ما فى ينابيع المودة، حيث قال: إن الكتب التى كانت لى من كتب الطب و كتب الحكماء و كتب الفلاسفة فبيعوها و تصدقوا بثمنها للفقراء، و أما كتب التفسير و الأحاديث و التصوف فاحفظوها فى دار الكتب، و اقرأوا كلمة التوحيد (لا إله إلا اللّه) سبعين ألف مرة فى الليلة، و بلّغوا منى سلاما إلى المهدى عليه السّلام[۱۰۰].

ص:۸۵

أقول: يمكن أن يقال أن قوله ذلك لا يدل على وجود المهدى و حياته، إذ ربما قال ذلك، برجاء أن يدركوا ظهوره، و لكن الأول أظهر.

و منهم: الشيخ سعد الدين الحموى على ما فى ينابيع المودّة، نقلا عن كتاب الشيخ عزيز بن محمد النسفى، عند كلامه فى ترتيب الأولياء، و أن اللّه تعالى اختار فى هذه الامة اثنى عشر وليا من أهل البيت فجعلهم خلفاء نبيّه المعظم صلى اللّه عليه و آله، إلى أن قال: و أما آخر الأولياء، الذى هو آخر خلفاء النبى و الولى و النائب الثانى عشر و خاتم الأولياء، فهو المهدى صاحب الزمان[۱۰۱].

و منهم: الشيخ شهاب الدين الهندى المعروف بملك العلماء فى كتابه (هداية السعداء على ما فى الدرر الموسوية)، قال عند ذكره الأئمة الاثنى عشر: التاسع يعنى من ولد الحسين الإمام حجة اللّه القائم المهدى، و هو غائب، و له عمر طويل كما فى المؤمنين عيسى و إلياس و الخضر و فى الكافرين الدجال و السامرى.

و منهم الشيخ الكامل الشيخ محمد المعروف بخواجه بارسا فى حاشية له على كتاب (فصل الخطاب) مضافا إلى ما تقدم عنه على ما فى (الدرر الموسوية)، حيث قال: و به (يعنى بالمهدى) ختمت

---

[۹۸] (۱) اسعاف الراغبين: ۲۲۷.

[۹۹] (۲) ينابيع المودّة: ۳/ ۳۰۴، الباب التاسع و السبعون.

[۱۰۰] (۳) المصدر السابق: ۳/ ۳۴۰، الباب الرابع و الثمانون.

[۱۰۱] (۱) ينابيع المودّة: ۳/ ۳۵۲، الباب السابع و الثمانون.

الخلافة و الإمامة، و هو إمام منذ وفاة أبيه إلى يوم القيامة، و عيسى يصلى خلفه و يصدقه و يدعو الناس إلى ملته و هى ملة النبى صلى اللّه عليه و آله.

... و منهم: غير واحد من الفضلاء و العرفاء فإن الذى يظهر من أشعارهم العربية و الفارسية المذكورة فى ينابيع المودّة و غيره من بعض كتب المناقب، أنهم يرون حياة المهدى المنتظر، و أنه حى يرزق لوصفهم له بالولاية و الإمامة و الخلافة و النيابة عن النبى صلى اللّه عليه و آله و أنه الواسطة فى الفيوضات الإلهية»[۱۰۲].

ج- و نعتمد فى تقرير البيان الثالث على ما كتبه السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضى اللّه عنه حيث كتب يقول:

«إن الغيبة تجربة عاشتها امّة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريبا، و هى فترة الغيبة الصغرى، و لتوضيح ذلك نمهد بإعطاء فكرة موجزة عن الغيبة الصغرى[۱۰۳].

إن الغيبة الصغرى تعبّر عن المرحلة الاولى من إمامة القائد المنتظر عليه الصلاة و السلام، فقد قدّر لهذا الإمام منذ تسلّمه للإمامة أن يستتر عن المسرح العام و يظلّ بعيدا باسمه عن الأحداث، و إن كان قريبا منها بقلبه و عقله، و قد لوحظ أن هذه الغيبة، إذا جاءت مفاجئة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للإمامة فى الامة الإسلامية؛ لأن هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالإمام

فى كلّ عصر، و التفاعل معه و الرجوع إليه فى حلّ المشاكل المتنوعة، فإذا غاب الإمام عن شيعته فجأة و شعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية و الفكرية، سببت هذه الغيبة[۱۰۴] المفاجئة الاحساس بفراغ دفعى هائل قد يعصف بالكيان كلّه و يشتت شمله، فكان لا بدّ من تمهيد لهذه الغيبة؛ لكى تألفها هذه القواعد بالتدريج، و تكيّف نفسها شيئا فشيئا على أساسها، و كان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التى اختفى فيها الإمام المهدى عن المسرح العام، غير أنه كان دائم الصلة بقواعده و شيعته عن طريق وكلائه و نوابه و الثقات من أصحابه الذين يشكلون همزة الوصل بينه و بين الناس المؤمنين بخطه الإمامى[۱۰۵]. و قد شغل مركز النيابة عن الإمام فى هذه الفترة أربعة ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم و ورعهم و نزاهتهم التى عاشوا ضمنها و هم كما يلى:

۱- عثمان بن سعيد العمرى.

---

[۱۰۲] (۱) المهدى: ۱۴۶- ۱۴۸.

[۱۰۳] (۲) راجع: الغيبة الصغرى، السيد محمد الصدر، فقد توسّع فى بحثها.

[۱۰۴] (۱) إشارة الى الغيبة الكبرى.

[۱۰۵] (۲) راجع: تبصرة الولى فيمن رأى القائم المهدى، السيد هاشم البحرانى، دفاع عن الكافى، السيد ثامر العميدى: ۱/ ۵۶۸ و ما بعدها.

تاريخ وفاة السفير الأوّل حدودا ۲۸۰ ه، و الثانى ۳۰۵ ه، و الثالث ۳۲۶ ه، و الرابع ۳۲۸ ه.

۲- محمد بن عثمان بن سعید العمری.

۳- أبو القاسم الحسین بن روح.

۴- أبو الحسن علی بن محمد السمری.

ص:۸۸

و قد مارس هؤلاء الأربعة[۱۰۶] مهام النیابة بالترتیب المذکور، و کلما مات أحدهم خلفه الآخر الذی یلیه بتعیین من الإمام المهدی علیه السّلام.

و کان النائب یتصل بالشیعة و یحمل أسئلتهم إلی الإمام، و یعرض مشاکلهم علیه، و یحمل إلیهم أجوبته شفهیة أحیانا و تحریریة[۱۰۷] فی کثیر من الأحیان، و قد وجدت الجماهیر التی فقدت رؤیة إمامها العزاء و السلوة فی هذه المراسلات و الاتصالات غیر المباشرة. و لا حظت أن کلّ التوقیعات و الرسائل کانت ترد علی الإمام المهدی علیه السّلام بخط واحد و سلیقة واحدة[۱۰۸] طیلة نیابة النواب الأربعة التی استمرت حوالی سبعین عاما، و کان السمری هو آخر النواب، فقد أعلن عن انتهاء مرحلة الغیبة الصغری التی تتمیز بنواب معینین، و ابتداء الغیبة الکبری التی لا یوجد فیها أشخاص معینون بالذات للوساطة بین الإمام القائد و الشیعة، و قد

ص:۸۹

عبّر التحول من الغیبة الصغری إلی الغیبة الکبری عن تحقیق الغیبة الصغری لأهدافها و انتهاء مهمتها؛ لأنها حصّنت الشیعة بهذه العملیة التدریجیة عن الصدمة و الشعور بالفراغ الهائل بسبب غیبة الإمام، و استطاعت أن تکیّف وضع الشیعة علی أساس الغیبة، و تعدّهم بالتدریج لتقبل فکرة النیابة العامة عن الإمام، و بهذا تحولت النیابة من أفراد منصوصین[۱۰۹] إلی خط عام[۱۱۰]، و هو خط المجتهد العادل البصیر بامور الدنیا و الدین، تبعا لتحول الغیبة الصغری إلی غیبة کبری.

---

[۱۰۶] (۱) راجع ترجمة هؤلاء الأربعة فی کتاب الغیبة الصغری للسید محمد الصدر، الفصل الثالث:

۳۹۵ و ما بعدها، نشر دار التعارف للمطبوعات- بیروت ۱۹۸۰.

[۱۰۷] (۲) و هذه تعرف بالتوقیعات، و هی الأجوبة التحریریة و الشفویة التی نقلت عن الإمام المهدی علیه السّلام. راجع: الاحتجاج، الطبرسی: ۲/ ۵۲۳ و ما بعدها.

[۱۰۸] (۳) مما استقر فی الأوساط الأدبیة و عند نقاد الأدب قدیما و حدیثا أن الاسلوب هو الرجل، و هذه المقولة صحیحة. و من هنا رأینا و سمعنا أن کثیرا من الادباء و قارنی الأدب یمیزون بمجرد قراءة النص شعریا کان أم نثریا أنه لفلان أو لفلان، و ما ذلک إلّا لأن الاسلوب هو الرجل، و أن لکلّ کاتب سمة و طابعا خاصا فی کتابته یمکن تمییزه عن غیره، هذا فضلا علی تمیّز خطّه الشریف من غیره من الخطوط.

[۱۰۹] (۱) إشارة إلی النواب الأربعة المذکورین.

[۱۱۰] (۲) و هو ما اصطلح علیه(بالمرجعیة الدینیة)، و یلاحظ هنا الصفات التی یری الإمام الشهید لزوم توفرها فی المرجعیة.

و الآن بإمكانک أن تقدّر المواقف فی ضوء ما تقدم، لکی تدرک بوضوح أن المهدی حقیقة عاشتها امة من الناس، و عبّر عنها السفراء و النواب طیلة سبعین عاما من خلال تعاملهم مع الآخرین، و لم یلحظ علیهم أحد، کل هذه المدة تلاعب فی الکلام، أو تحایلا فی التصرف أو تهافتا فی النقل. فهل تتصور- بربّک- أن بإمکان اکذوبة أن تعیش سبعین عاما، و یمارسها أربعة علی سبیل الترتیب کلهم یتفقون علیها، و یظلون یتعاملون علی أساسها و کأنها قضیة یعیشونها بأنفسهم و یرونها بأعینهم، دون أن یبدر منهم أی شیء یثیر الشک، و دون أن یکون بین الأربعة علاقة خاصة متمیزة تتیح لهم نحوا من التواطؤ، و یکسبون من خلال ما یتصف به سلوکهم

ص:۹۰

من واقعیة ثقة الجمیع، و إیمانهم بواقعیة القضیة التی یدّعون أنهم یحسونها و یعیشون معها؟!

لقد قیل قدیما: إنّ حبل الکذب قصیر، و منطق الحیاة یثبت أیضا أن من المستحیل عملیا بحساب الاحتمالات أن تعیش اکذوبة بهذا الشکل، و کل هذه المدة، و ضمن کلّ تلک العلاقات و الأخذ و العطاء، ثم تکسب ثقة جمیع من حولها.

و هکذا نعرف أن ظاهرة الغیبة الصغری یمکن أن تعتبر بمثابة تجربة علمیة لإثبات مالها من واقع موضوعی، و التسلیم بالإمام القائد، بولادته و حیاته و غیبته[۱۱۱]، و إعلانه العام عن الغیبة الکبری التی استتر بموجبها عن المسرح و لم یکشف نفسه لأحد[۱۱۲]»[۱۱۳].

ص:۹۱

الفصل الثالث القیمة العقائدیة لمفهوم المهدویة فی مدرسه اهل البیت علیهم السّلام

العقائد سواءا کانت أرضیة تعود فی نشأتها إلی الإنسان، أو سماویة تعود فی منشأها إلی اللّه سبحانه و تعالی، لا بد و أن یکون لها مدلول إنسانی، فإن کانت أرضیة فهی ناشئة من ظروف الإنسان و معبّرة عن تطلعاته و رغبته فی التوصل إلی حیاة أفضل، و إن کانت سماویة فهی تجسد رحمة اللّه سبحانه و تعالی بالإنسان و حبّه له و حرصه علی إیصاله إلی ساحل السعادة، و هذا مما

---

[۱۱۱] (۱) إن اتصال الإمام القائد المهدی بقواعده الشیعیة عن طریق نوابه و وکلائه، أو بأسالیب اخری متنوعة واقع تاریخی موضوعی لیس من سبیل إلی إنکاره، کما فی السفارة، فضلا عن الدلائل الاخری الکثیرة المستندة إلی إخبار من یجب تصدیقه، ثم هو مقتضی الأحادیث المتواترة، کحدیث:« من مات و لم یعرف إمام زمانه مات میتة جاهلیة» و غیر ذلک. إنّ کل ذلک جموعا- و هو محل اتفاق أکثر طوائف الملة الإسلامیة- یدحض و بشکل قاطع ما یثیره المتشککون حول وجود الإمام و استمرار حیاته المبارکة الشریفة، راجع:

الغیبة الصغری، السیّد محمد الصدر: ۵۶۶.

[۱۱۲] (۲) ورد التوقیع الشریف عن الإمام القائد المهدی علیه السّلام بعدم إمکان رؤیته بشکل صریح بعد وقوع الغیبة الکبری، و هذا محل اتفاق علماء الإمامیة. و راجع مناقشة المسألة فی: الغیبة الصغری/ السید محمد الصدر: ۶۳۹ و ما بعدها.

[۱۱۳] (۳) بحث حول المهدی: ۱۰۸- ۱۱۱ بتحقیق و تعلیق الدکتور عبد الجبار شرارة.

يقطع به المؤمن فى أصل العقيدة الإسلامية سواء اتّضح له هذا المدلول الإنسانى بنحو تفصيلى، أو بقيت تفاصيله مجملة مكنونة فى طى الغيب.

و الإنسان يتعامل مع العقائد تارة عقليا من زاوية الدليل و البرهان، و اخرى حسيا من زاوية ما تحققه هذه العقائد من أغراض و ما تقدمه من عطاء و حلول لمشاكل الإنسان فى حياته اليومية. و مهما تكن هذه العقائد واضحة و أكيدة من زاوية الدليل و البرهان، فإن غموضها من الزاوية الإنسانية يجعلها مورد شک و ترديد أو- على الأقل- نقطة غير فاعلة و غير مشعّة فى النفس.

ص:٩٢

و العقيدة الإسلامية كعقيدة سماوية ليس بوسعنا أن نتوقع منها أن تفصح عن أغراضها الإنسانية بنحو تفصيلى، لأن البيان التفصيلى يؤدى إلى تركيز الناحية الحسّية فى الشخصية الإنسانية، و يتنافى مع الشأن الأساسى للعقيدة المتمثل باجلاء الناحية العقلية، و تركيز الناحية الروحية فى الشخصية الإنسانية، و لذا فمن الطبيعى أن تكتفى هذه العقيدة ببيان الحد الأدنى و بنحو كلّى لأغراضها الإنسانية، مثل قوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ[١١٤].

لكنها فى الوقت نفسه تحث الإنسان المؤمن باتجاه التعقل و التدبّر المفضى فى النتيجة إلى تصيّد الحكم المحتملة و الأغراض الإنسانية التفصيلية المتوقعة فى مختلف الجهات العقائدية و التشريعية من الإسلام.

و نحن قد درسنا المسألة المهدوية من زاوية الدليل و البرهان، و اتضح أن مفهوم مدرسة أهل البيت عن المهدوية، بالقياس إلى مفهوم مدرسة المذاهب الأربعة عنها من ناحية الدليل و البرهان، يمثل هذه المسألة فى مستواها الأكمل و الأتم.

و كمالها فى المجال العقائدى و البرهانى يقتضى و يؤدى بنا إلى الاعتقاد بكمالها فى ما تقدمه من معطيات انسانية، و المفارقة التى

ص:٩٣

تؤدى بالكثيرين إلى التشكيک و إثارة الشبهات حول مفهوم المهدوية عند أهل البيت، تعود إلى أن هؤلاء لا ينظرون إلى زاوية الدليل و البرهان، بقدر ما يركّزون على الناحية الإنسانية التى تجعلهم يتساءلون:

ما هى الثمرة المترتبة على الاعتقاد بمفهوم عن المهدوية يتصف بمعانى غيبية غير مألوفة كالغيبة، و العمر الطويل، و الإمامة المبكرة؟ و حينما لا يتوصلون إلى جواب كاف و تبقى الناحية الإنسانية لهذا المفهوم محاطة بالغموض و الإبهام يدفعهم الجهل بها، و العجز عن تصورها إلى إنكار هذا المفهوم و اتهامه بالغلو و الخيال، و الاستعاضة عنه بمفهوم آخر للمهدوية يخلو من هذه الأبعاد، و لا يتطلب كلفة غيبية كبيرة، دون أن يعلموا أنّهم بعملهم هذا قد انتقلوا من الكمال إلى النقص، و أن اعتراضهم على هذه

---

[١١٤] (١) الأنبياء: ١٠٧.

الأبعاد الغيبية إنّما هو اعتراض على الجوهر الغنى لمفهوم المهدوية فى الإسلام، فضلا عن مخالفته للناحية المنطقية التى تقتضى فى باب الاعتقاد متابعة الدليل و البرهان أينما اتجها، لا تحريفهما باتجاه ما تقتضيه الأهواء و الأغراض و الاعتقادات الشخصية.

و لو أنهم تدبروا فى مفهوم أهل البيت عليهم السّلام عن المهدوية،

ص:۹۴

لوجدوه فى ناحيته الإنسانية أكمل من مفهوم مدرسة الخلفاء عنها، و قد تكفل السيد الشهيد محمد باقر الصدر ببيان هذه الناحية بيانا رائعا حيث كتب يقول[۱۱۵]:

«و نتناول الآن السؤال الثانى، و هو يقول: لماذا كل هذا الحرص من اللّه سبحانه و تعالى على هذا الإنسان بالذات، فتعطل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟ و لماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل، و تنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على الساحة و يمارس دوره المنتظر.

و بكلمة اخرى: ما هى فائدة هذه الغيبة الطويلة و ما المبرر لها؟

و كثير من الناس يسألون هذا السؤال و هم لا يريدون أن يسمعوا جوابا غيبيا، فنحن نؤمن بأن الأئمة الاثنى عشر مجموعة فريدة[۱۱۶] لا يمكن التعويض عن أىّ واحد منهم، غير أن هؤلاء

ص:۹۵

المتسائلين يطالبون بتفسير اجتماعى للموقف، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها، و المتطلبات المفهومة لليوم الموعود.

و على هذا الاساس نقطع النظر مؤقتا عن الخصائص التى نؤمن بتوفرها فى هؤلاء الائمة المعصومين[۱۱۷]، و نطرح السؤال التالى:

---

[۱۱۵] (۱) بحث حول المهدى: ۸۳- ۸۹ بتحقيق و تعليق الدكتور عبد الجبار شرارة.

[۱۱۶] (۲) اشارة إلى معتقد الإمامية الاثنى عشرية المستند إلى أدلة المعقول و المنقول، و بالأخص إلى حديث الثقلين المتواتر« إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى». راجع: صحيح مسلم: ۴/ ۱۸۷۳، و راجع الصواعق المحرقة لابن حجر: ۸۹، قال: ثم اعلم أن لحديث التمسک بذلک طرقا كثيرة وردت عن نيف و عشرين صحابيا.

و كذلک إلى قوله صلى اللّه عليه و آله« لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض ..» و إلى قوله صلى اللّه عليه و آله:

« الخلفاء بعدى اثنا عشر كلهم من قريش». و مفاد ذلک كله تقرير هذا المعنى.

[۱۱۷] (۱) تحدث النبى الأكرم محمد صلى اللّه عليه و آله كثيرا عن خصائصهم و أدوارهم، و وظيفتهم و مهماتهم، و أنهم حملة الشريعة، و سفن النجاة، و أمان الامة، و عصمتها من الضلال، كما إليه الإشارة فى حديث الثقلين، و حديث لن يفترقا و كلاهما يؤكدان عصمتهم، إذ لا يعقل أنهم عصمة الامة من الضلال، و أنهم لن يفترقا عن القرآن المعصوم، و هم غير معصومين!!

إننا بالنسبة إلى عملية التغيير المرتقبة فى اليوم الموعود، بقدر ما تكون مفهومة على ضوء سنن الحياة و تجاربها، هل يمكن أن نعتبر هذا العمر الطويل لقائدها المدّخر عاملا من عوامل إنجاحها، و يمكنه من ممارستها و قيادتها بدرجة أكبر؟

و نجيب عن ذلک بالإيجاب، و ذلک لعدة أسباب منها ما يلى:

إن عملية التغيير الكبرى تتطلب وضعا نفسيا فريدا فى القائد الممارس لها، مشحونا بالشعور .. بالتفوق و الاحساس بضآلة الكيانات الشامخة التى اعد للقضاء عليها، و تحويلها حضاريا إلى

عالم جديد.

فبقدر ما يغمر قلب القائد المغير من شعور بتفاهة الحضارة التى يصارعها، و احساس واضح بأنها مجرد نقطة على الخط الطويل لحضارة الإنسان، يصبح أكثر قدرة من الناحية النفسية[۱۱۸] على مواجهتها و الصمود فى وجهها و مواصلة العمل ضدها حتى النصر.

و من الواضح أن الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسى يتناسب مع حجم التغيير نفسه، و ما يراد القضاء عليه من حضارة و كيان، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر و لحضارة أرسخ و أشمخ تطلبت زخما أكبر من هذا الشعور النفسى المفعم.

و لما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم ملىء بالظلم و بالجور، تغييرا شاملا بكل قيمه الحضارية و كياناته المتنوعة، فمن الطبيعى أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر فى شعوره النفسى من ذلک العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلک العالم الذين

نشأوا فى ظل تلک الحضارة التى يراد تقويضها و استبدال حضارة العدل و الحق بها؛ لأن من ينشأ فى ظل حضارة راسخة، تغمر الدنيا بسلطانها و قيمها و أفكارها، يعيش فى نفسه الشعور بالهيبة تجاهها؛ لأنه ولد و هى قائمة، و نشأ صغيرا و هى جبارة، و فتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة.

راجع: الاصول العامة للفقه المقارن، العلامة محمد تقى الحكيم، مبحث حجية السنة: ص ۱۶۹ و ما بعدها.

[۱۱۸] (۱) أن يكون القائد التاريخى مهيئا نفسيا و معدا إعدادا مناسبا لأداء المهمة، أمر مفروغ منه، و لو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يتحدث عن هذه المسالة فى تاريخ الأنبياء بصورة واضحة جدا، و بخاصة فيما يتعلق بالنبى نوح عليه السّلام، و هو أمر يلفت الإنتباه و النظر، و ربما يكون للتشابه و الإتفاق فى الدور و المهمة التى أوكلت لهما، كما نبه الشهيد الصدر رحمه اللّه إليه.

راجع: مع الأنبياء، عفيف عبد الفتاح طبارة.

و خلافا لذلک، شخص يتوغل فی التاريخ عاش الدنيا قبل أن ترى تلک الحضارة النور، و رأى الحضارات الكبيرة سادت العالم الواحدة تلو الاخرى ثم تداعت و انهارت[۱۱۹]، رأى ذلک بعينيه و لم يقرأه فی كتاب تاريخ ..

ثم رأى الحضارة التی يقدر لها أن تكون الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود، رآها و هی بذور صغيرة لا تكاد تتبين.

ثم شاهدها و قد اتخذت مواقعها فی احشاء المجتمع البشرى تتربص الفرصة لكی تنمو و تظهر ..

ص:۹۸

ثم عاصرها و قد بدأت تنمو و تزحف و تصاب بالنكسة تارة و يحالفها التوفيق تارة اخرى ..

ثم واكبها و هی تزدهر و تتعملق و تسيطر بالتدريج على مقدرات عالم بكامله، فإن شخصا من هذا القبيل عاش كل هذه المراحل بفطنة و انتباه كاملين ينظر إلى هذا العملاق- الذى يريد أن يصارعه- من زاوية ذلک الامتداد التاريخی الطويل الذى عاشه بحسه لا فی بطون كتب التاريخ فحسب، ينظر إليه لا بوصفه قدرا محتوما، و لا كما كان ينظر (جان جاک روسو)[۱۲۰] إلى الملكية فی فرنسا، فقد جاء عنه أنه كان يرعبه مجرد أن يتصور فرنسا بدون ملک، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكريا و فلسفيا إلى تطوير الوضع السياسی القائم و قتئذ؛ لأن (روسو) هذا نشأ فی ظل الملكية، و تنفس هواءها طيلة حياته، و أما هذا الشخص المتوغل فی التاريخ، فله هيبة التاريخ، و قوة التاريخ، و الشعور المفعم بأن ما حوله من كيان و حضارة وليد يوم من أيام التاريخ، تهيأت له الأسباب فوجد، و ستتهيأ الأسباب فيزول، فلا يبقى منه شیء كما

ص:۹۹

لم يكن يوجد منه شیء بالأمس القريب أو البعيد، و أن الأعمار التاريخية للحضارات و الكيانات مهما طالت فهی ليست إلّا أيّاما قصيرة فی عمر التاريخ الطويل.

هل قرأت سورة الكهف؟

---

[۱۱۹] (۱) و يمكن أن نقرب هذا المعنى بما عشناه و شاهدناه من صعود الإتحاد السوفيتی و ترقيه حتى صار القطب الثانی فی العالم، و تقاسم هو و أمريكا النفوذ الحضارى و الهيمنة السياسية، و ركبا معا اجواء الفضاء، ثم شهدنا انهيار الإتحاد السوفيتی و تفكک أوصاله بمثل تلک السرعة القياسية فی الانهيار، فكم كان لذلک من أثر؟ و كم كان فيه من عبرة؟

و كم كان فيه من دلالة عميقة؟.

[۱۲۰] (۱) جان جاک روسو(۱۷۱۲- ۱۷۷۸ م) كاتب و فيلسوف فرنسی اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذا فی الأدب الفرنسی الحديث و الفلسفة الحديثة، و قد مهدت كتاباته و مقالاته للثورة الفرنسية، و أشهر مؤلفاته العقد الاجتماعی. راجع: موسوعة المورد، منير البعلبكی:

۸/ ۱۶۹.

و هل قرأت عن اولئک الفتية الذين آمنوا بربهم و زادهم اللّه هدى[۱۲۱]؟ و واجهوا كيانا و ثنيا حاكما، لا يرحم و لا يتردد فى خنق أى بذرة من بذور التوحيد و الارتفاع عن وحدة الشرک، فضاقت نفوسهم و دبّ إليها اليأس و سدت منافذ الأمل أمام أعينهم، و لجأوا إلى الكهف يطلبون من اللّه حلا لمشكلتهم بعد أن أعيتهم الحلول، و كبر فى نفوسهم أن يظل الباطل يحكم و يظلم و يقهر الحق و يصفى كل من يخفق قبله للحق.

هل تعلم ماذا صنع اللّه تعالى بهم؟

إنه أنامهم ثلاثمائة سنة و تسع سنين[۱۲۲] فى ذلک الكهف، ثم بعثهم من نومهم و دفع بهم إلى مسرح الحياة، بعد أن كان ذلک الكيان الكيان الذى بهرهم بقوته و ظلمه قد تداعى و سقط، و أصبح تاريخا

لا يرعب أحدا و لا يحرک ساكنا، كل ذلک لكى يشهد هؤلاء الفتية مصرع ذلک الباطل الذى كبر عليهم امتداده و قوته و استمراره، و يروا إنتهاء أمره بأعينهم و يتصاغر الباطل فى نفوسهم.

و لئن تحققت لأصحاب الكهف هذه الرؤية الواضحة بكل ما تحمل من زخم و شموخ نفسيين من خلال ذلک الحدث الفريد الذى مدد حياتهم ثلاثمائة سنة، فإن الشىء نفسه يتحقق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذى يتيح له أن يشهد العملاق و هو قزم و الشجرة الباسقة و هى بذرة، و الاعصار و هو مجرد نسمة[۱۲۳]، أضف إلى ذلک، أن التجربة التى تتيحها مواكبة تلک الحضارات المتعاقبة، و المواجهة المباشرة لحركتها و تطوراتها لها أثر كبير فى الإعداد الفكرى و تعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود؛ لأنها تضع الشخص المدخر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكل ما فيها من نقاط الضعف و القوة، و من ألوان الخطأ و الصواب، و تعطى لهذا الشخص قدرة أكبر على تقييم الظواهر

الاجتماعية بالوعى الكامل على أسبابها، و كل ملابساتها التاريخية.

---

[۱۲۱] (۱) إشارة إلى الآية القرآنية المباركة:\i إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً ...\E الكهف: ۱۳، و راجع تفسيرها فى الكشاف، الزمخشرى ۲: ۷۰۶، نشر دار الكتاب العربى- بيروت.

[۱۲۲] (۲) إشارة إلى الآية:\i وَ لَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً ...\E الكهف: ۲۵.

[۱۲۳] (۱) و كل ذلک له مدخلية فى تربيته و اعداده الاعداد الخاص، بما فى ذلک امتلاكه النظرة الشمولية العميقة، فضلا عن شهوده بنفسه ضآلة اولئک المتعملقين الذين يملؤون الدنيا ضجيجا و صخبا، و يسترهبون الناس، و هذه الشهود يؤهله أكثر فأكثر لأداء مهمته الكونية فى التغيير، أى ملئه للأرض عدلا بعدما ملئت ظلما، هذا بغض النظر عن مؤهلاته الذاتية، و العناية الربانية الخاصة.

ثم إن عملية التغيير المدخرة للقائد المنتظر تقوم على أساس رسالة معينة هى رسالة الإسلام، و من الطبيعى أن تتطلب العملية فى هذه الحالة قائدا قريبا من مصادر الإسلام الاولى، قد بنيت شخصيته بناء كاملا بصورة مستقلة و منفصلة عن مؤثرات الحضارة التى يقدر لليوم الموعود أن يحاربها.

و خلافا لذلک، الشخص الذى يولد و ينشأ فى كنف هذه الحضارة و تتفتح أفكاره و مشاعره فى إطارها، فإنه لا يتخلص غالبا من رواسب تلک الحضارة و مرتكزاتها، و إن قاد حملة تغييرية ضدها.

فلكى يضمن عدم تأثر القائد المدخر بالحضارة التى اعد لاستبدالها، لا بد أن تكون شخصيّته قد بنيت بناء كاملا فى مرحلة حضارية سابقة هى أقرب ما تكون فى الروح العامة و من ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التى يتجه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته»[۱۲۴].

ص:۱۰۲

ثم يطرح سماحته رضى اللّه عنه بعد ذلک سؤالا آخر مرتبطا بالناحية الإنسانية من العقيدة المهدوية، و هو: لماذا لم يظهر القائد العالمى طيلة هذه المدة؟ و إذا كان قد أعد نفسه للعمل الاجتماعى، فما الذى منعه عن الظهور على المسرح فى فترة الغيبة الصغرى، أو فى أعقابها بدلا عن تحويلها إلى غيبة كبرى، حيث كانت ظروف العمل الاجتماعى و التغييرى و قتئذ أبسط و أيسر، و كانت صلته الفعلية بالناس من خلال تنظيمات الغيبة الصغرى تتيح له أن يجمع صفوفه و يبدأ عمله بداية قوية، و لم تكن القوى الحاكمة من حوله

ص:۱۰۳

قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة و القوة التى بلغتها الإنسانية بعد ذلک من خلال التطور العلمى و الصناعى؟[۱۲۵]

---

[۱۲۴] (۱) و لا ينبغى أن يشكل أحد بأن النبى محمد صلى اللّه عليه و آله مع عالمية رسالته و مهمته التغييرية الكبرى إلّا أنه عاش فى كنف الحضارة الجاهلية، و لم يتأثر بها، و كذا الأنبياء السابقون، فما هو الوجه فى هذا الرأى؟-- فجوابه:

أ- إن النبى صلى اللّه عليه و آله قد أخضع فعلا إلى حالة عزلة تامة من الحضارة الجاهلية، و أنه كما ورد فى السيرة النبوية قد حبب إليه الخلاء، و كان يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه و كذا الأنبياء كانوا يتنزهون عما عليه مجتمعهم، و كانوا يعتزلون، و إليه الإشارة فى قوله تعالى:

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ مريم: ۴۹.

ب- إن النبى المرسل يوحى إليه، و يسدد مباشرة من السماء، و يبلغ بالأعمال و الخطوات التى يتخذها خطوة خطوة، و الإمام عليه السّلام لا يوحى إليه- كما هو عقيدة الإمامية- و لا يبلغ بالامور مباشرة من السماء، نعم يكون مسددا و تحت العناية الربانية، و لذلک فهو يحتاج إلى اعداد خاص. ففى نفس الوقت الذى يكون فيه قريبا و متصلا بالحضارة الإسلامية، مستمدا من آبائه عليهم السّلام الأصالة و المعرفة و العلم، يكون مطلعا على التجارب البشرية و الحضارات فى صعودها و عوامل تكونها و قوتها، و كذلک إخفاقاتها و عوامل ضعفها و انهيارها، فيستمد الخبرة و القدرة و الاحاطة بالامور جميعا، هذا مع اعتقادنا بقدرات الإمام العلمية الذاتية التى وهبها اللّه تعالى له، و بكونه مسددا من السماء.

[۱۲۵] (۱) بحث حول المهدى، الشهيد محمد باقر الصدر قدس سرّه: ۸۹ الهامش، تحقيقات الدكتور عبد الجبار شرارة، طبع مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

و الجواب: «أن كل عملية تغيير اجتماعى يرتبط نجاحها بشروط و ظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلّا عندما تتوفر تلك الشروط و الظروف.

و تتميز عمليات التغيير الاجتماعى التى تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط فى جانبها الرسالى بالظروف الموضوعية[۱۲۶]؛ لأن الرسالة التى تعتمدها عملية التغيير هنا ربانية، و من صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية، و لكنها فى جانبها التنفيذى تعتمد الظروف الموضوعية و يرتبط نجاحها و توقيتها بتلك الظروف. و من أجل ذلك انتظرت السماء مرور

ص:۱۰۴

خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يد النبى محمد صلى اللّه عليه و آله؛ لأن الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلك.

و الظروف الموضوعية التى لها أثر فى الجانب التنفيذى من عملية التغيير، منها ما يشكل المناخ المناسب و الجو العام للتغيير المستهدف، و منها ما يشكل بعض التفاصيل التى تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية.

فبالنسبة إلى عملية التغيير التى قادها- مثلا- لينين فى روسيا بنجاح، كانت ترتبط بعامل من قبيل قيام الحرب العالمية الاولى و تضعضع القيصرية، و هذا ما يساهم فى إيجاد المناخ المناسب لعملية التغيير، و كانت ترتبط بعوامل اخرى جزئية و محدودة من قبيل سلامة لينين مثلا فى سفره الذى تسلل فيه إلى داخل روسيا و قاد الثورة، إذ لو كان قد اتفق له أى حادث يعيقه لكان من المحتمل أن تفقد الثورة بذلك قدرتها على الظهور السريع على المسرح.

و قد جرت سنة اللّه تعالى التى لا تجد لها تحويلا فى عمليات التغيير الربانى على التقيد من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التى تحقق المناخ المناسب و الجو العام لإنجاح عملية

ص:۱۰۵

التغيير، و من هنا لم يأت الإسلام إلّا بعد فترة من الرسل و فراغ مرير استمر قرونا من الزمن.

فعلى الرغم من قدرة اللّه- سبحانه و تعالى- على تذليل كل العقبات و الصعاب فى وجه الرسالة الربانية، و خلق المناخ المناسب لها خلقا بالاعجاز، لم يشأ أن يستعمل هذا الاسلوب؛ لأن الامتحان و الابتلاء و المعاناة التى من خلالها يتكامل الإنسان، يفرض على العمل التغييرى الربانى أن يكون طبيعيا و موضوعيا من هذه الناحية، و هذا لا يمنع من تدخل اللّه- سبحانه و تعالى- أحيانا

---

[۱۲۶] (۲) على الرغم من الأهمية التى يخطها الشهيد الصدر رضى اللّه عنه هنا للظروف الموضوعية، و دور نضوجها أو انضاجها فى نجاح الثورات- و هذا فهم عميق لأثر العامل الاجتماعى و النفسى- إلّا أن الشهيد الصدر رضى اللّه عنه يعرض نظرية جديدة فى فهم عملية التغيير الاجتماعى، الذى تحدثه السماء من خلال الرسالات السماوية، فهى فى جانبها الرسالى ترتبط بقانونها الخاص، و لكن فى جانبها التنفيذى تعتمد الظروف الموضوعية و ترتبط بها توقيتا و نجاحا، و أعنى بالظروف الموضوعية: الحالة السياسية و الحالة الاجتماعية للأمة و الواقع الدولى المعاصر، و مدى قدرة الأمة فى إمكاناتها الذاتية و استعدادها النفسى.

فيما يخص بعض التفاصيل التى لا تكون المناخ المناسب، و إنما قد يتطلبها أحيانا التحرک ضمن ذلک المناخ المناسب، و من ذلک الامدادات و العنايات الغيبية التى يمنحها اللّه تعالى لأوليائه فى لحظات حرجة فيحمى بها الرسالة، و إذا بنار نمرود تصبح بردا و سلاما على إبراهيم[۱۲۷]، و إذا بيد اليهودى الغادر التى ارتفعت بالسيف على رأس النبى صلى اللّه عليه و آله تشل و تفقد قدرتها على الحركة[۱۲۸]، و إذا بعاصفة قوية تجتاح مخيمات الكفار و المشركين الذين

ص:۱۰۶

أحدقوا بالمدينة فى يوم الخندق و تبعث فى نفوسهم الرعب[۱۲۹]، إلّا أن هذا كله لا يعدو التفاصيل و تقديم العون فى لحظات حاسمة بعد أن كان الجو المناسب و المناخ الملائم لعملية التغيير على العموم قد تكون بالصورة الطبيعية و وفقا للظروف الموضوعية.

و على هذا الضوء ندرس موقف الإمام المهدى عليه السّلام، لنجد أن عملية التغيير التى اعدلها ترتبط من الناحية التنفيذية كأى عملية تغيير اجتماعى اخرى بظروف موضوعية تساهم فى توفير المناخ الملائم لها، و من هنا كان من الطبيعى أن توقت وفقا لذلک.

و من المعلوم أن المهدى لم يكن قد أعد نفسه لعمل إجتماعى محدود، و لا لعملية تغيير تقتصر على هذا الجزء من العالم أو ذاک؛ لأن رسالته التى ادخر لها من قبل اللّه- سبحانه و تعالى- هى تغيير العالم تغييرا شاملا، و اخراج البشرية كل البشرية من ظلمات الجور إلى نور العدل[۱۳۰]، و عملية التغيير الكبرى هذه لا يكفى فى ممارستها مجرد وصول الرسالة و القائد الصالح، و إلّا لتمت شروطها فى عصر النبوة بالذات، و إنما تتطلب مناخا عالميا مناسبا،

ص:۱۰۷

و جوا عاما مساعدا، يحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالمية، فمن الناحية البشرية يعتبر شعور إنسان الحضارة بالنفاد عاملا أساسيا فى خلق ذلک المناخ المناسب لتقبل رسالة العدل الجديدة، و هذا الشعور بالنفاد يتكون و يترسخ من خلال التجارب الحضارية المتنوعة التى يخرج منها إنسان الحضارة مثقلا بسلبيات ما بنى، مدركا حاجته إلى العون، ملتفتا بفطرته إلى الغيب أو إلى المجهول.

و من الناحية المادية يمكن أن تكون شروط الحياة المادية الحديثة أقدر من شروط الحياة القديمة فى عصر كعصر الغيبة الصغرى على إنجاز الرسالة على صعيد العالم كله، و ذلک بما تحققه من تقريب المسافات، و القدرة الكبيرة على التفاعل بين شعوب

---

[۱۲۷] (۱) اشارة إلى قوله تعالى:\i قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ* قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ* وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ\E الانبياء: ۶۸- ۷۰.

[۱۲۸] (۲) راجع الرواية فى تفسير ابن كثير: ۲/ ۳۳، و راجع البحار، المجلسى: ۱۸/ ۴۷ و ۵۲ و ۶۰، ۷۵ باب معجزات النبى صلى اللّه عليه و آله.

[۱۲۹] (۱) تاريخ الطبرى: ۲/ ۲۴۴ حوادث السنة الخامسة من الهجرة.

[۱۳۰] (۲) كما هو نص الحديث النبوى الشريف:« لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم لطول اللّه ذلک اليوم حتى يبعث رجلا منى أو من أهل بيتى يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا». راجع التاج الجامع للاصول: ۵/ ۳۴۳، قال: رواه أبو داود و الترمذى.

الأرض، و توفير الأدوات و الوسائل التى يحتاجها جهاز مركزى لممارسة توعية شعوب العالم و تثقيفها على أساس الرسالة الجديدة.

و أما ما اشير إليه فى السؤال من تنامى القوى و الأداة العسكرية التى يواجهها القائد فى اليوم الموعود كلما اجل ظهوره، فهذا صحيح، و لكن ماذا ينفع نمو الشكل المادى للقوة مع الهزيمة النفسية من الداخل، و انهيار البناء الروحى للإنسان الذى يملک کل

ص:١٠٨

تلک القوى و الأدوات؟ و كم من مرة فى التاريخ انهار بناء حضارى شامخ بأول لمسة غازية؛ لأنه كان منهارا قبل ذلک، و فاقدا الثقة بوجوده و القناعة بكيانه و الاطمئنان إلى واقعه»[١٣١] انتهى ما أفاده قدسّ سرّه.

و بإمكاننا أن نتناول المعطى الإنسانى للمهدوية فى مفهوم أهل البيت عليهم السّلام من زاوية اخرى.

فنقول:

إن الاعتقاد بمهدوية غائبة عن الأنظار لكنها حية و مؤثرة فى مجريات الأحداث لصالح الجماعة المؤمنة، و هى تحمل كل خصائص الإمامة من العصمة و النص النبوى و الكمال العلمى و العملى، من شأنه أن يشيع فى المجتمع أجواء هذه الإمامة و نفحاتها المعنوية و الروحية الرفيعة، و يشبع الإنسان باحساس طيب بتواصل الصلة بين الأرض و السماء، و استمرار الرعاية السماوية للأرض، و تحويل ذلک إلى معان محسوسة أكثر فاعلية فى النفس، بعد ما كانت فى اصولها العقائدية معان معقولة،

ص:١٠٩

و يكرس فى الساحة الاجتماعية و السياسية حاكمية التوحيد، و يجعلها حاكمية قريبة من الحسّ الإنسانى، بوصف أن المهدوية الغائبة ليست شخصا عاديا، و إنما هى الإمام الثانى عشر المعين سماويا ليشغل موقع الإمامة حتى نهاية التاريخ، صحيح أن الناس لا يباشرونه حسيا، لكن الاعتقاد بكونه حقيقة حسية يقصر إحساسنا عن إدراكها يجعل النفس فى حالة تفاعل روحى إيجابى مع خط الإمامة الإلهية المعصومة بما هو تعبير و امتداد لحاكمية التوحيد فى الأرض.

و يشتد هذا التفاعل أكثر حينما تعبر المهدوية المعصومة الغائبة عن نفسها تعبيرا سياسيا بارزا من خلال مبدأ النيابة الخاصة فى فترة الغيبة الصغرى، و مبدأ النيابة العامة للفقهاء فى فترة الغيبة الكبرى كقيادة سياسية شرعية للمجتمع الإسلامى بما يحفظ للإمامة موقعها السامى كمشرف يراقب التجربة السياسية و الاجتماعية و ينصرها، و كمنبع يمدها بالشرعية حينما يجدها متطابقة مع الإسلام.

---

[١٣١] (١) لقد شاهدنا فى بداية التسعينات المصداق لهذه المقولة التى اطلقها الشهيد الصدر رضى اللّه عنه إستنادا إلى خبرته العميقة بالمجتمع البشرى، فقد إنهار الإتحاد السوفيتى و هو أحد القطبين اللذين كانا يهيمنان على العالم إنهيارا سريعا جدا، و بصورة أذهلت الجميع.

و من مجموع هذه البيانات يتجلى بوضوح معنى الكمال فيما يقدمه المفهوم المهدوى عند أهل البيت عليهم السّلام من معطى إنسانى و هو معطى ينسجم تماما مع جوهر الفكرة المهدوية، فإن

ص:١١٠

المهدوية المعصومة الغائبة مهدوية متحركة و مؤثرة و إيجابية بالنسبة إلى الواقع الإنسانى. بينما المهدوية فى مفهوم أهل السنة ليس لها تأثير فى الواقع الإنسانى، و هى ليست أكثر من تنبؤ مستقبلى. و كأن مهدوية أهل البيت عليهم السّلام تتكفل بتحقيق ما تعد به من خلال تحريک الواقع الإنسانى و التفاعل الإيجابى معه.

و هذا بذاته خير ما يوضح المعنى الإيجابى لمفهوم الانتظار.

فإن انتظار الفرج ليس سكوتا و انهزاما، و إنما هو روح إيجابية فعالة باتجاه التغيير المطلوب مهدويا.

ص:١١١

نتيجة البحث

و فى نهاية المطاف يمكننا استخلاص نتائج البحث، بالنقاط التالية:

١- إن الدين هو التعبير الأكمل عن الحقائق الإنسانية، و الإسلام هو التعبير الأكمل عن الحقائق الدينية، و التشيّع هو التعبير الأكمل عن الحقائق الإسلامية، و بالتالى فمهدوية أهل البيت عليهم السّلام هى أكمل تعبير عن أصل المهدوية، الذى أجمع المسلمون على الاعتقاد به.

٢- إن جوهر الفرق بين مهدوية أهل البيت عليهم السّلام، و مهدوية الجمهور من علماء المسلمين، يعود الى مسألة الإمامة، فالمهدى فى مدرسة أهل البيت عليهم السّلام هو الإمام الثانى عشر عليه السّلام، بينما هو فى مدرسة الجمهور مسألة مستقبلية صرفة؟

٣- و لما كانت المسألة المهدوية عند أهل البيت عليهم السّلام، هى مسألة الإمام الثانى عشر الذى لا إمام للبشرية بعده، من هنا فقد اتّصف المفهوم المهدوى عندهم عليهم السّلام بثلاث خصائص، هى: ولادة الإمام المهدى بنحو سرّى و مكتوم، و إمامته المبكرة، و غيبته المستلزمة لعمر مفتوح مع امتداد الزمن، و هذه الخصائص ثابتة بثبوت أصل الإمامة الاثنى عشرية المعصومة، الذى تفرعت عليه، فضلا عن الأدلة التفصيلية التى مرّ ذكرها واحدا بعد الآخر.

ص:١١٢

۴- إن هذه الخصائص الثلاثة ليست ثابتة بأدلة عقائدية و عقلية و وجدانية كافية، و لا يلزم منها أى إيراد عقلى أو دينى فحسب، و إنّما هى التى تمنح معنى الكمال للمفهوم المهدوى، و تجعله مفهوما ذا قيمة عقائدية و معطيات إنسانية عالية و خلّاقة على الساحة الاجتماعية، تتكامل و تنسجم مع معطيات أصل الدين فى الحياة الإنسانية.

الفهرس

كلمة المجمع ۵

المهدويّة عند أهل البيت عليهم السّلام ۹

الإمامة الإثنا عشرية جوهر مفهوم المهدويّة ۹

الفصل الأوّل الإثبات العقائدى لمفهوم المهدويّة عند أهل البيت عليهم السّلام ۱۳

اضطراب مدرسة الخلفاء فى تفسير الحديث ۱۹

الفصل الثانى خصائص مفهوم المهدوية عند أهل البيت عليهم السّلام ۲۹

الخصوصية الاولى: تحقق ولادة الإمام المهدى عليه السّلام فى أجواء سرية مقصودة ۲۹

الشواهد التاريخية الدالة على وجود الإمام المهدى عليه السّلام ۳۲

۱- شهادة الإمام العسكرى عليه السّلام بولادة الإمام المهدى عليه السّلام ۳۲

۲- شهادة القابلة ۳۳

۳- عشرات الشهادات برؤية الإمام عليه السّلام ۳۳

۴- تعامل السلطة العباسية مع الحدث ۳۵

۵- اعترافات علماء السنّة بولادة الإمام المهدى عليه السّلام ۳۹

وقفة مع المنكرين ۴۲

الخصوصية الثانية: الإمامة المبكرة ۴۴

الخصوصية الثالثة: الغيبة المستلزمة لعمر مفتوح مع انفتاح الزمن ۵۵

الاولى: مرحلة إثبات إمكانية العمر الطويل ۵۵

الثانية: مرحلة إثبات تحقق ذلک فعلا فی الإمام المهدی علیه السّلام ۷۱

۱- الطريق العقائدی ۷۱

۲- الطريق التاريخی ۷۷

الفصل الثّالث القيمة العقائدية لمفهوم المهدوية فی مدرسة أهل البيت عليهم السّلام ۹۱

نتيجة البحث ۱۱۱

الفهرس ۱۱۳[۱۳۲]

[۱۳۲] بهبهانی، عبد الکریم، المهدوية عند اهل البيت (عليهم السلام)، ۱جلد، مجمع جهانی اهل بيت عليهم السلام - قم (ايران)، چاپ: ۱، ۱۴۲۲ ه.ق.